عبد الله

معارك بين الآلهة

883.1:A13mA

عبد الله ـ محمد حسني

معارك بين الالهة .

883.1
A13mA

JN 1 64

MR 26'56

DE 7'57

30 NOV 1971

1 MAY 1975

883.1
A13m A
c.1

محمد حسنى عبد الله

مَعَارِك بَينَ الآلِهة

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY
Cat. 12 Nov. 53

مطبعة الاعتماد بمصر

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

مقدمة

بقلم حضرة صاحب العزة محمد فريد بك أبو حديد
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

قرأ العالم الإلياذة منذ ألوف السنين ، أو سمعوها غناء فى الأناشيد ، أو عرضوها لأنفسهم صورا مختلفة فى شتى الفنون . وكان شعراء الأجيال المختلفة يقتبسون من خيالها ، والمثالون والمصورون يعيدون فى فنونهم مناظرها . بل لقد كان القصاصون ينتزعون حوادثها ليحلوا بها أقاصيصهم فى مشارق الأرض ومغاربها وليس من المصادفة أن يكون فى الأوديسية اللاتينية شبه منها ، أو أن يكون فى قصص ألف ليلة الفارسية ثم العربية صلة كبرى بنماذج أخيلتها . فلا جرم أن الإلياذة كانت وما تزال إلى اليوم نبعا إنسانيا خالداً .

ومن عجب أن العرب الأوائل نقلوا عن اليونان فلسفتهم وعلمهم ، واحتذوا فى تأليفهم الأدبى كثيرا من مثلهم . ولكنهم

لم ينصرفوا إلى نقل إلياذة (هومير) فيما نقلوه من آثار عبقرية اليونان . أيكون ذلك لأن الذين توفروا على النقل من اليونانية كانوا من صفوة العلماء الذين لا يعيرون إلى طرائف الأدب الأجنبي التفاتا ؟ أم يكون لأن الأدب العربي بدأ فى سبيل غير سبيل أدب الإغريق ، ومضى فى سبيله حتى أوغل فلم يكن بين الأدبين تشابه فى الغاية أو فى الوسيلة ؟ أم يكون ذلك لانقطاع الصلة بين اللغتين وقيام العداوة حينا طويلا بين الملتين ؟ لا نستطيع اليوم — ونحن على مدى قرون من عصر النهضة الأدبية الأولى فى العربية — أن نقطع برأى فى ذلك السر الذى كان له أثره الواضح فى الأدب العربي . ولكنا لا نشك فى أن إلياذة هومير قد تسربت إلى الأدب الشعبي ، وأثرت فيه أثرا بليغا ، لا عن طريق الترجمة الصريحة المثبتة ولا عن طريق التلمذة الظاهرة المعلنة . بل تسربت إلى الناس فى خفاء وغموض كما تسرى تيارات الهواء بين الأقاليم ، وكما تتغلغل مياه السماء فى أجواف الصخر من الهضاب البعيدة إلى بطون الاودية . فى كل ما تخلف لنا من الادب الشعبي صور تنبيء عن أصلها الهومرى — نرى ذلك كما قلنا فى قصة ألف ليلة وليلة ، وفى قصة عنتره ، وسيف بن ذى يزن ، وذات الهمة . بل إننا نلمح أثر الإلياذة فيما لم يكتب فى الكتب من أدبنا الشعبي فنسمعه فى أناشيد المهد ، وفى (حواديت)

الأم ، والجدة إلى جانب السرير . ولست أنسى كما لاينسى غيرى ما اعتدنا سماعه فى أيام الطفولة مما لانجد له أثرا فى كتاب . ولو جمع ذلك من شتى موارده لاجتمع منه سفر عظيم ينطق بما فيه من أثر الإلياذة . وقد تأثر الغرب بأدب اليونان تأثرا بليغا منذ عهد النهضة إلى اليوم . ولسنا نشك فى أن تقدم الشعر والقصص فى الأدب الغربى إنما يرجع إلى ذلك الأثر القديم الذى حرم منه أدبنا العربى . فالإلياذة وليدة فن اتجه إلى غاية الفن لم يقصد من ورائها إلى غاية أخرى . فهو شعر إنسانى ينطلق مع الطبيعة البشرية ليمتع الطبيعة البشرية .

وكان هومير على ماقيل عنه يتنقل بين بلاد هيلاس يدب على عصاه وهو الشاعر الأعمى ، منشدا مطربا وهو قانع بما يعود عليه من إنشاده من رزق ضئيل إلى جانب متعته بالإنشاد . وقد جزته الإنسانية الجزاء الأوفى بأن حفظت آيته البديعة فى قلوبها ، وخلفتها جيلا بعد جيل وديعة مروية حتى أدركها التدوين بعد قرون .

وإذا كان من النقاد من ينكر هومير ، أو من ينسب الإلياذة إلى أجيال متعاقبة من الأدباء ، فإن الحقيقة لاتتغير ولاينقص منها أن المؤلف مجهول أو متعدد . فليكن هومير الشاعر الأعمى حديث

خرافة ، او ليكن رمزا على مؤلف مجهول أو أجيال من مؤلفين ، فإن ذلك لا يغير الحقيقة الماثلة أن الإلياذة أثر فنى أصيل خالد انبعث عن النفس البشرية الصافية التى صورت جوانب من القلب الإنسانى فى أسلوب يجمع بين قوة الطبيعة وصدقها وجمالها .

والأدب الغربى حافل بالإلياذة وثمارها وما اقتبس منها ومانسج على غرارها . فالقوم فى شتى بلاد الغرب يتخذون منها أنماطا متباينة ، ويفتنون فى عرضها على أنفسهم صغارا وكبارا . بل إنهم مازالوا إلى اليوم مع مابلغوه من تقـــدم فى الأدب يستعيدون صورها ويعتمدون فى تأدبهم على أساليبها . لقد اتسعت الشقة بين الأدب الأوربى الحديث وبين الأدب الهومرى الساذج ، ولكن جوهر الإلياذة الخالد مازال ولن يزال محتفظا بقيمته الفنية العالية .

والأدب الحديث فى أسمى صوره لايستطيع أن ينفصل عن العاطفة الانسانية أو عن قصة البشرية فى حياتها وما يتصل بذلك من خير وشر أو سعادة وشقاء . والأثر الذى يستطيع الأدب الحديث بلوغه فى أكمل حالاته إنما يكون بمقدرة الأديب على مس القلب الإنسانى بأسلوبه ونجاحه فى أن يودع فيه مايريد من مشاعر . وهاتان ميزتان تجعلان الإلياذة خالدة على مر الدهور .

وقد فطن أدباء العربية إلى قيمة الإلياذة فأقبلوا عليها فى أيام

النهضة الحديثة يترجمونها نثراً أو شعراً ، ويقتبسون منها حينا ، أو يدسون فى آثارهم بعض صورها .

ولكن الإلياذة جديرة بأن تزداد فى أدبنا وضوحا ، وأن يكون أثرها فى انتاجنا أعمق وأبعد من نقل جزء أو اقتباس منظر . ولو حرص شعراؤنا الناشئون على ترسم أسلوب الإلياذة فى إنشائهم لوجدوا طرائق جديدة لتأليفهم ، ولكشفوا من نبوغهم مناحى لم تخطر للذين سبقوهم فى ميدان الشعر . فمن شعراء الشباب جماعة تكمن فى قلوبها عبقرية خامدة وهم لا يخرجون عن طرائق القدماء فى الإنشاء ، فلا يزيد إنتاجهم على أن يكون تكرارا لما سبقهم لا ابتكار فيه . ولو مضى الشعر العربى فى هذا السبيل لما كان فيه إلا عود على بدء ونشر بعد طى . على أن القلب الإنسانى فى حاجة إلى من يسبر أغواره ، ومن يسوق إليه القول المطرب الذى يهز أوتاره . وأغلب الظن أن شعراء الشباب لو حفلوا بالإلياذة وتذوقوا حسنها وتأثروا باسلوبها لتوجهوا إلى وجهة جديدة فيها كثير من الإبداع . وقد لمحت مثل هذا الإقبال من صديقى الأستاذ الأديب محمد حسنى منذ عهد بعيد ، فقد اقتبس من الإلياذة هذه الصورة التى سماها « معارك بين الآلهة » . ومن أشق الاعمال أن يعمد أديب إلى عمل عظيم ليجمله فى صورة تستطيع العين اللماحة أن تجمعها ، فإن هذا

يحتاج إلى مقدرة فى الفهم والأداء ، وإلى نصوع فى الأسلوب وحكمة فى الاختيار والإجمال ، وإلى براعة فى إبراز الخصائص التى تتضمن روح العمل الأدبى وتحتفظ بجوهر أثره .

وقد قرأت هذا الكتاب الذى توفر الأستاذ على وضعه منذ سنوات طويلة كان فى أثنائها يحاسب نفسه ويراجعها ليكون فى إجماله أمينا وفى أسلوبه مبينا . فكأنى وأنا أقرأ هذا السفر المجمل إنما أقرأ ترجمة موفقة لقطعة كاملة من الأثر القديم . فقد وفق الأستاذ فى وضعه توفيقا عظيما ، فى تجلية الصور واضحة ، وفى طريقة أدائه التى تعمد فيها البساطة ، حتى لا يحجب ماوراء اللفظ من الصور .

ولعل بدء الأستاذ بمثل هذا العمل يكون إرتيادا وإشارة إلى الميدان الفسيح الذى نعتقد أن أدبنا الناشىء فى أشد الحاجة إلى ولوجه .

وأنا على يقين أن القراء سيجدون فيه ما وجدت من متعة صادقة ، ومن تقدير لمجهود صادق يبذله أديب مثقف يجمع بين الحماسة للغة العربية وبين الإيمان بضرورة التعاون بين شعب الفكر الإنسانى فى الشرق والغرب ؟

١٩٥٠ / ١ / ٢١ محمد فريد ابو حديد

(١)

خرج بليوس ملك فسيا إلى شاطىء البحر ليستريض ويستروح نسائمه ، واعتلى صخرة فجلس عليها، وأخذ يصوب أنظاره بعيداً إلى الأفق وهو مأخوذ بروعة المنظر .

وكان ملكا شجاعا مقداما محبا للمخاطر، يطيب له أن يخرج وحده فى أكثر الوقت إلى حيث ترفل الطبيعة فى أبهى حللها ، فيكون استمتاعه بجمالها غير مشوب بما ينتقص منه من حديث رفيق أو خطاب تابع . . . لأن الوحدة تعين على الاستغراق والتملى وتفهم معانى الجمال .

وكانت شجاعته حافزا له على إلتماس هذه الوحدة فى الأماكن المقفرة والأرجاء الخالية من الناس . وهناك على شاطىء البحر حيث تتوعر الصخور فى بعض نواحيه لا يعز عليه منشوده ولا يتعذر عليه مطلوبه .

جلس بليوس على الصخرة التى اختارها ليطل منها على البحر . ثم أخذ يتابع ببصره الأمواج التى كانت تقبل إلى الصخور ، فترتطم عليها ثم تنحسر عنها . فإذا موجة منها تأخذ فى الارتقاء حتى تصل إليه وتكاد تمس أقدامه . . . . ثم تنفصل عن أمواه البحر

وتتخذ لنفسها طريقا مستقلا على غارب الصخور ، ثم تندفع إلى غار فى جوفها .

إذ ذاك نهض بليوس وعلى وجهه إمارات الدهش . وكان المنظر حريا بأن يخيف غيره . ولكنه ملك ثبت الجنان ، قد اتصف بالشجاعة ، فلم يتسرب الخوف إلى قلبه ، واستيقظ فى نفسه حب الاستطلاع ، وفطن إلى أن هذه الموجة لا بد أن تكون حورية من حوريات البحر ، تتخذ من الغار مسكنا . وهى إذ تأخذ طريقها إليه إنما تتشكل بصورة الموج ، مخافة أن يراها بشرى فيستدل عليها ، ويحاول إزعاجها وإقلاقها .

ولعله يرتاع عند رؤية هذا المنظر الغريب ، فيولى هاربا ويريحها من تطفله .

فطن إلى ذلك وأحب أن يرى هذه الحورية من بين الحوريات . إذ المشهور عنهن جمال منقطع النظير ، وفتنة تغرى بمشاهدتهن . فأخذ سمته نحو الغار ، الذى اتجهت إليه الموجة حتى وصل إلى مدخله ... فإذا بخار يتصاعد منه . فاستل سيفه ، وأخذ يلوح به يمنة ويسرة ، مخترقا به البخار الذى أخذ ينقشع رويداً رويداً ، ولكنه لم يلبث أن تحول إلى نار تستعر ، ذات لهيب ودخان وأخذت تنتشر انتشاراً سريعا ذريعا ، حتى كادت تلتف حول بليوس . فثبت فى مكانه ، بل حاول أن

يقتحم النار اقتحاما ، فإذا النار تصير صخرة صماء ، تسد باب الغار سداً محكما ، فقال :

ـ أيتها الصخرة الصماء . . . . أطيف خيال أنت ، أم ساحرة من سحرة الإنس ، أم حورية من حوريات البحر الفاتنات ؟ فأنتفضت الصخرة ، فإذا هى صورة سبع بمعرفة سوداء ، وكان هو الذى أجاب قائلا :

ـ بل أنا وحش لا ضريب لى أستطيع أن ألتهمك فى دقيقة واحدة . ولكنى معجب بشجاعتك أشد الإعجاب . . . . أيهذا الرجل الجرىء المقدام . . . . دعنى وسر فى سبيلك فإنى لا أحب أن أتعرض لك بشر أو سوء مكافأة لك على أقدامك .

فقال بليوس :

ـ أشكر لك حسن ظنك بى . . . . ولكنى ما زلت أحدث نفسى بأنك حورية هيفاء ، لا وحش ضار ، وإلا لكان الشر مقدما عندك على المسالمة والموادعة ، ولكان لى معك شأن آخر . . . . بل إذا كنت وحشا ضاريا فإننى أتحداك ولا أستمهلك . . . . فإما دافعت عن نفسك ، وإما كشفت لى عن حقيقتك .

ثم تقدم بليوس من السبع ، الذى تقاعس عنه ، وأخذ يتقهقر قليلا قليلا ، ثم أفلت من الغار ، واستحال فى خارجه إلى دوحة باسقة

وارفة الظلال، متعارشة الأغصان، تتطاير على أفنانها الأطيار، وتتغنى بأعذب الألحان متجاوبة متصايحة . فاتجه نحوها بليوس ، واستند على جزعها ، وقد أيقن أنه حيال حورية تتعابث بهذا التشكل ، لا وحش ضار ، كما أرادت أن تدخل فى روعه ، وإلا لكان منه ما يكون من الوحوش الضارية من شر واعتداء .

وأخذ يعمل فكره فى الوسيلة الناجعة التى يستطيع بها أن يصل إلى بغيته من رؤية صورتها ، فتذكر ما كان قد تعلمه من سحر على يد « شيرون » هذا الحيوان المسن ، الذى كان أحكم من كثيرين من بنى البشر . فأخذ يتمتم ببعض الألفاظ ، ويأتى ببعض الحركات ويلوح بيديه ، ويضرب بقدميه ، حتى ضاقت الشجرة ذرعا بأعماله ، وشعرت أنها غلبت على أمرها ، بما أتى من ضروب المهارة فى محاولته السحرية ، فإذا هى تستحيل إلى صورة آدمية رائعة الجمال . فقال لها بليوس وقد شاهد أن لها أقداما فضية عاجية :

ــ يا ذات الأقدام الفضية ، يا رائعة الحسن . ناشدتك أن تصدقينى القول ، وأن تميطى اللثام عن حقيقتك . . . بربك من أنت ؟

فقالت الحسناء ذات الأقدام الفضية العاجية :

ــ أما وقد أظهرت من الجرأة ما جعلنى أكبرك وأعجب بك ،

فإنى يطيب لى أن أخبرك أننى « تيتيس » إلاهة البحر .

فردد بليوس قولها مأخوذا متعجبا :

ـــ تيتيس إلاهة البحر ! ! تيتيس إلاهة البحر ! !

ثم قال : إنى إذن لسعيد . . . ولكنى كنت أوثر ألا تكونى إلاهة يعجزنى أن أتقرب منها . . . وكنت أفضل أن تكونى حورية من حوريات البحر، أستطيع إذ يروقنى حسنها، أن أتخذ منها زوجة . . أما وقد سحرنى جمالك أيتها الإلاهة العظيمة، وفى الوقت ذاته أرانى عاجزاً عن اتخاذك شريكة لحياتى ، فإننى أعترف لك بأننى سأظل طيلة الحياة متحسراً متأسفا على استحالة الجمع بينى وبينك .

فقالت : وما يضير أن أكون زوجة لك . أو ما يتخذ كبيرنا « زوس » زواجات عدة من البشر . لم لا أتأسى به وأحتذى حذوه ؟ . . ولأنت خير من صادفت من البشر . ومايروقنى أن أتخذ زوجا من بين الآلهة . . أعدك أن سأكون لك زوجة .

ثم أقبلت نسمات البحر تحملتها على أجنحتها ، ووضعتها على غارب الأمواج . وأقلعت تيتيس بعيـــداً عن الصخور المتوعرة ، وبليوس واقف لا حراك به أشبه بمن لا يصدق بصره وسمعه .

(٢)

عند ما بلغت « تيتيس » ما وراء دائرة الأفق ، التى كانت تصل

اليها أنظار بليوس ، استقلت سحابة بيضاء ، وصعدت عليها إلى « الأولمب » حيث يقطن أقاربها من الآلهة ، واتجهت إلى قصر كبيرهم وأبيهم « جوبتر » إله الآلهة الذى يسمى « زوس » أيضا . فقصت على مسامعه ما كان من مصادفتها لبليوس على صخور البحر ، وما كان من محاولاته حتى اكتشف أمرها . واعترفت له أنها قد أحبته لبسالته ووعدته بالزواج .

فابتسم كبير الآلهة ، ولم ير أن يعارضها فيما ارتأت . فهذا شأنها هى وحدها فضلا عن أنه يستلطف البشر ، ولا يرى من باس فى أن يجمع الزواج بينهم وبين الآلهة . . فهذا خليق بأن يتحف العالم بأبطال لاغنى للعالم عنهم يتولون منه المقادة والزعامة . . وهو أولا وأخيرا مسؤول عن عالم الآلهة وعالم البشر ، ويسره أن يقرب بين العالمين . لذلك أقرها ورأى أن تعلن أمرها لبقية الأرباب .

فذهبت إلى هيرا ، أو جينون كما تسمى أيضا ، وهى زوجة كبير الآلهة المفضلة ، إحدى زوجاته الكثيرات ، فساقت إليها الخبر . . ثم ساقته إلى أفروديت ربة الجمال ، وإلى بلاس أثينا ربة الحكمة ، فأبهجهن النبأ وأثلج صدورهن . . ثم لم يلبث الخبر أن ذاع بين بقية الآلهة .

(٣)

عاد بليوس إلى قصره شارد اللب موزع القلب . فما رآه فى يومه كان شيئا لا ينسى . . فضلا عن أن صورة الإلاهة ما برحت تتردد فى خياله . وآوى إلى مضجعه فما اكتحلت عيناه بالنوم ، وأخذ يحدث نفسه : أتصدق الإلاهة فى وعدها ؟ . . أتتزوجه حقا وهو من البشر ؟.. وبينما هو يتقلب فى فراشه إذا هو يسمع طرقا خفيفا على النافذة ، فاستوى قائما ، وهبط إلى أرض الغرفة مسرعا ، وفتح مصراعى النافذة ، فإذا هرميس رسول الآلهة ، مطلا بطلعته البهية متحدثا بلسانه الساحر :

— أى بليوس . . . أنا مبعوث الآلهة إليك . . جئت أعلمك بأن سكان الأولمب قد أحاطوا علما بما وعدتك به « إلاهة البحر » . وقد رأوا أن تزف إليك تيتيس فى قصرك هذا .

فقال بليوس : أتيتيس صادقة أذن ؟

فقال هرميس : ومتى كان الكذب من خلق الآلهة ؟

فقال بليوس : معذرة . . أكاد من فرط المسرة لا أصدق .

فقال هرميس : صدق أو لا تصدق ، ولكن عليك أن تعد معدات الاحتفال فى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم ، فسيحل بك الآلهة ضيوفا فى ذلك اليوم .

ثم لم يمهل رسول الآلهة الملك بليوس حتى يسأل عما ينبغى أن يعد من احتفال يليق بمقام الآلهة . فحرك جناحيه واستقل الهواء تاركا ملك « فيسيا » ذاهلا عن نفسه ، يكاد من فرح أن يغيب عن حواسه . ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، ويمم ناحية الفراش ، فاستلقى عليه ، ثم استرسل فى الأحلام السعيدة والأمانى المعسولة ، والنوم مستعص عليه حتى قامت جيوش الفجر تطرد أمامها جيوش الظلام ، فأخذته سنة من النوم .

(٤)

كان اليوم الذى ضربه هرميس موعداً لاحتفال الآلهة بزواج تيتيس من بليوس يوم اثنين . وكان يقع من بين الفصول فى فصل الربيع ، الذى أخذت أزهاره وورود تتضوع ، ويملأ أريجها الجو ، وأخذت أطياره تطير وتتصايح ويملأ غناءها وهتافها الاسماع . . . فكأنما اتفقت الطبيعة والسعادة على أن يكون ذلك اليوم فريداً .

فما أقبل الليل وزهرت النجوم فى قبة السماء ، حتى أخذ الآلهة يهبطون إلى الأرض وحدانا وجماعات . وكان بليوس قد أولم بقصره وليمة فاخرة منقطعة النظير . فتصدرها زوس كبير الآلهة بطبيعة الحال . وجلست إلى يمينه زوجته هيرا . . . وإلى يساره ابنته أثينا ، ثم تلتها أفروديتى ، فغيرهم من الآلهة . . وكان بين المدعوين « ربات

الأقدار » . وهن ربات ذوات طول وحول ، لهن سلطان على الناس ، كما لهن سلطان على الآلهة .. وكان حضورهن هذا الاحتفال بمثابة تشريف للعروسين .

وكن يحملن المغازل فى يمينهن ، وهى مغازل أعدت لغزل أعمار الناس . فأخذن يدرنها ، وهن يتغنين متنبئات بأن سيكون لهذا الزواج ثمرة مباركة ، يتعالى لها صيت بعيد وقدر بين الرجال .

وثمة إلاهة ، هى إلاهة الخلاف ، وتدعى أريس ، لم تكن قد دعيت إلى هذا العرس : وهى إلاهة حسودة تنهش الغيرة صدرها ، ولا تغفر لاحد تفريطه فى حقها . فأهمها وأغضبها ما كان من بهجة الحفل ، فآلت على نفسها أن تفسد هذه البهجة ، وأن تبعث من المسرة خلافا بين الآلهة من شأنه أن ينفرط له عقد الحضور عاجلا دون أن يطول استمتاعهم وسرورهم . فأقبلت حاملة تفاحة ذهبية مشرقة كالشمس ، ثم ألقت بها على الخوان ، فإذا أبصار الحضور تشخص إليها وتتطلع النفوس إلى أخذها .

وكان مكتوبا على التفاحة « مهداة لأكثرهن فتنة وجمالا » . فلما تبينت الأبصار هذه العبارة ، اشتد خصام هيرا وأثينا وأفروديتى عليها ، فقد كانت كل منهن تعد نفسها فى جمال لا تدانيها فيه إلاهة أخرى . وكاد خصامهن ينقلب إلى تماسك وسباب لا يليق بوقار الآلهة ومالها

من قدر ،لولا أن احتكمن إلى زوس ليحكم أيهن أبرع جمالا، وأيهن أحق بالتفاحة . . . فخاف زوس مغبة قضائه، وخشى أن يحكم لامرأته أو لأحدى ابنتيه — وهما من زوجتين أخريين — فيبوء بسخط اثنتين معا .

فقال لهن : مهلا . . . على رسلكن . . . فما أنا بقاض أيكن أحق بالتفاحة . . . فكلكن عندى سواء ، وكلكن جميلات إلى محبيات .

ولكنى أدلكن على راع جميل على جبل « إدا » أرى أن أستطلع رأيه ، وأحكمه فى الأمر، وعليه هو أن يختار أجملكن .

وهنا استدعى إريس رسولة الآلهة وأمرها بأن تطير بالتفاحة إلى هذا الراعى ، فتلقيها بين يديه . . . فأئتمرت بأمر كبير الآلهة . ثم أعقب ذلك أن انفض الحفل بعد أن تم زواج تيتيس من بليوس.

(٥)

كان باريس الراعى الجميل يرعى الغنم، وهو يرسل من مزماره أنغاما جميلة على جبل « إدا »

وكانت الأغنام مبثوثة فى المروج ، متفرقة بين الصخور، حيث الأعشاب الجبلية نامية متكاثرة ، فهى مشغولة برعيها مقبلة على طعامها اليومى فى حراسة كلب كبير ضخم يطمئن باريس إلى عينه

الساهرة وحرصه على النباح إذا لاح فى الافق ماينذر بالخطر . سواء أكان مصدر هذا الخطر إنسانا من بين الناس ، أم وحشا من بين الوحوش ، أو طيرا كاسرا من بين سباع الطير .

وكان باريس منتحيا ناحية قصية بعيداً عن أغنامه ، مطمئنا إلى كلبه الذى عهد إليه بحراستها .. وكان معنيا بالنفخ فى مزماره ، وإلى جانبه حوريته إينون . . هذه الحورية التى تنفرد بجمال نادر من بين الحوريات . وكانت هى مبعث إلهامه . . فما تكون إلى جواره حتى تكون أنغام موسيقاه شجية عذبة جامعة لكل جميل من الأصوات الشادية ... فقد يحسبها الإنسان هديل حمام ، أو تغريد طائر أو خرير ماء . أو كلها معا .

وقد اعتادت إينون أن تخرج اليه من بين امواج البحر — لأنها ابنة كيرين إله النهر — فى كل صباح ، فتظل معه طيلة النهار لاتفارقه حتى تغرب الشمس ويدلهم الظلام ، ويحين أن يعود بأغنامه إلى كوخه . إذ ذاك تودعه ، وتلوح له بيدها وهى ميممة نحو الأمواج لتختفى بينها . . فإذا انطلق إلى داره أمضى ليله حالما بها ، مستعرضا صورتها الحلوة وحديثها العذب. فلايكاد ينبثق الفجر حتى يكون أول مستيقظ رجاة أن يجمعه ضوء النهار بهذه الحورية الوفية المخلصة .

كان باريس إذن جالسا فى ذلك اليوم كعادته وإلى جواره إينون. وكانت الحورية مهمومة على خلاف العادة، تثقلها أحزان لا تدرى كنهها . فلعلها كانت تحس أن سيجد جديد فى حياتها مع صاحبها الجبلى الفاتن الشجاع . . . . وكانت موسيقاه فى ذلك اليوم أشد روعة . فكأنما كانت هذه الحلاوة الآسرة ، وتلك العذوبة إيذانا بانقضاء عهد جميل .... فما تتناهى الأشياء إلا حين تؤذن بالانقلاب إلى ضدها وعكسها .

وإنهما لكذلك وإذا التفاحة الذهبية التى بعث بها زوس مع رسول الآلهة تسقط بين يدى باريس ، فالتقطها فرحا دهشا من حسنها ، وتساءل من أين جاءته . فقالت له إينون وقد أحس قلبها شيئا غامضا مبهما :

— دع هذه التفاحة ... أى باريس ، وأطرحها بعيداً عنك ، فإنما يخيل إلى أنها ما سقطت بين يديك إلا لشر .

فقال : عجبا . . . وكيف يكون الشر من الأشياء الجميلة ؟

فقالت له : لا تغتر بالظواهر . فإن قلبى يحدثنى أن ظهور هذه التفاحة سيكون عاملا للفرقة بينى وبينك .

فقال لها : دعك من هذه الأوهام . . . . انما هو فرط الحب الذى يخيل إليك ذلك . ولكن إذا كان يرضيك أن

أقذفها إلى اليم ليبتلعها ، فإنى فاعل .

وهمّ بان يلقى التفاحة فى الماء ، سوى أن شيئا بهته فجعله يقف لا حراك به ، والتفاحة ما تزال بيده . ذلك هو ظهور الآلهات الثلاث على ربوة فاحلة ، ما كادت أقدامهن تطؤها ، حتى نبت العشب والزهر فى مواقع أقدامهن . وكانت بالسماء غمامة فانقشعت ، وكانت الشمس متوارية وراء السحب فلاحت للأبصار . لقد استحال كل شىء جميلا فاتنا ، وزاد النور الذى كان يشرق من محيا الإلاهات الثلاث الأشياء بهاء ورواء وفتنة .

وما رأتهن إينون حتى اختفت بين الخمائل . وتقدمت هيرا كبيرة الآلهة ، فقالت وهى تحاول إغراء باريس بصوت ناعم رقيق :

ـ لا ترع أى باريس . . لقد جئناك لخير . أنا هيرا كبيرة الآلهة . بوسعى أن أسعفك بطلبتك ، وأن أحقق أحلامك . . فلا بد أن تكون لك أحلام وأمان كل الشباب . . فلعلك تحلم بالمجد وتحب أن تكون صاحب سلطان عريض ، وسيد أراض مترامية ، ومالك مروج ومزارع تشرف عليها حصون وقلاع ترد عنها كيد المغير ، وتصون لك مالك وأتباعك . ولعلك تود كذلك أن يكون لك ثغور ومرافىء تجملها السفائن بشراعها ، وهى مبحرة عنها أو راسية

عليها . . . لعلك تحلم بذلك ، وتتطلع اليه لتكون موضع التجلة من كبير الناس وصغيرهم .

فقال باريس : مهلا . . . يا كبيرة الآلهة . . أين لى كل هذا وما أنا إلا راع لا أعهد لى موطنا غير هذه الجبال القاحلة ، ولا أهلا غير هؤلاء الرعاة الفقراء ، ولا ملكا غير تلك الأغنام الثاغية .

فقالت هيرا : أنت تجهل الكثير عن أصلك ، وإذا شئت أعلمتك أنك ابن ملك عظيم ، وكل ما سأفعله من أجلك هو أن أعيدك إلى موطنك فيعود اليك مجدك ويتحقق ما أمنيك به .

فقال باريس : إذا كنت ابن ملك كما تقولين ، فما الذى أتى بى إلى هنا . . . وكيف يكون ذلك ، وأنا لم أعرف لى أبا غير هذا الراعى الشيخ ، الذى درجت فى أكنافه ، وشببت فى رحابه .

فقالت هيرا : إذن أنا قائلة لك ما تجهل من قصة حياتك : موطنك مدينة طروادة التى تقوم على الساحل الآسيوى من بحر إيجيا . . وأبوك بريام عاهلها . . وأمك هيكوبا ملكتها . . وأخوك هكتور الذى عرف بالشدة والبأس والبطولة الفذة .

حملتك أمك بعد هكتور ، فأنت أخوه الأصغر . ورأت فيما يرى النائم ، وهى حامل بك حلما أفزعها . رأت انها ممسكة بيدها مشعلا

أشعلت به المدينة ، فالتهمتها النيران وأضحت أثرا بعد عين . فقامت من نومها مذعورة مرتاعة ، وقصت حلمها على الملك ، فأمر باحضار العرافين ، الذين فسروا الحلم بأن مولدك سيكون نكبة على المدينة العظيمة .

وحين ولدت ، جمع الملك وزراءه وكبار رجال دولته ، واستشارهم فى أمرك ، فأشاروا بقتلك حرصا على الملك ، مخافة أن يتحقق ما رأت الملكة من حلم . ولكن عاطفة الأبوة أبت أن ينفذ هذا الرأى . ورأى أبوك رحمك أن يستبعداك عن ملكهما ، فأمرا بالقائك على سفوح التلال المجاورة . فحملك حاجبها إلى جبل إدا ، وتركك على أغصان شجرة متعارشة ، فمر بك أحد الرعاة وفرح بعثوره عليك ، وحملك إلى كوخه ، فسهر على تربيتك وتنشئتك فى كنفه حتى صرت شابا جريئا ، مقداما ، حلو المظهر والمخبر ، سمحا رضى الخلق ... ذلك الراعى هو الذى تحسبه أباك .

سمع باريس مقال الإلاهة ، والعجب يأخذ منه . . وحن إلى رؤية أبيه وأمه الذين ساقت إليه أخبارهما .. ولكنه فكر فيما بينه وبين نفسه : « وماذا يهمها فى أن تعيده إلى موطنه » . وكأنما فطنت هيرا إلى ما يدور بنفسه فقالت له :

ــ ولكنى لا أرد عليك ملكك ، وأيسر لك العودة إلى موطنك ،

إلا لشيء واحد أطلبه منك : ذلك هو أن تعطيني هذه التفاحة التي تشرق بين أصابعك . وكان باريس على وشك أن يعطيها التفاحة ، حين صاحت به بلاس أثينا : « أن توقف واحتفظ بتفاحتك حتى تسمع مقالتي كذلك ، وأظهرك على ما سأخصك به مما يفوق ماوعدت به هيرا .

أنا منير فاربة الحكمة . وأدعى أحيانا بلاس أثينا ، وفي قدرتي أن أجعل منك أحكم الرجال وأنبلهم . . إن السلطان والملك شيء جميل ، ولكن أجل منه نعمة العقل ودولة الخيال والفكر ، وما العقل والخيال والفكر إلا دولة مترامية الأطراف ، لايحدها حد ، ولا تعرف لها نهاية . . وهي دولة ساحرة خلابة . . لا يرضى صاحبها عنها بديلا ، ويقنع بهـا عن كل سلطان ، ويراه دونها في المتعة الحقة بالحياة . وهل كانت الحياة إلا فكراً . فضلا عن أنه ما يكاد يتسم بها إنسان حتى يبعد صيته وتطير شهرته وتكون له في قلوب الرجال منزلة أبدية ، إذ أن من هذا شأنه يكون للناس هاديا ومرشداً ومعلما وغارس الفضائل في نفوسهم . سأدلك على الحقيقة ، وسأرشدك إلى الفضيلة ، وسأكون معوانا لك في نشرهما بين الناس .

ستكون صائب القول ، صائب الفعل ، مسدد الخطى . ومن كان هذا شأنه ، لا يتسرب الخوف إلى قلبه ، لأنه لا يفعل ما يخاف منه .

ستهدى الناس إلى السعادة الحقة ، وستنشر بينهم العدل، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .

ستكون عظيما يوقرك الناس ويشيدون باسمك .»

إذ ذاك قال باريس :

ــ هذا شيء جميل حقا ، وأراه آثر عندى، وأقرب إلى قلبى .

وحاولت إينون أن تسمعه رأيها فى هذا الأمر ، فقد كانت تؤثر ذلك أيضا ، وهو أحرى أن يحفظه لها ، فهو إذا أصغى إلى هيرا مغادرها وتاركها ، فقالت همسا فى مهب الريح الذاهبة صوب باريس : أعط التفاحة لمنيرفا . وهمّ باريس بأن يستجيب لصوت نفسه ولنداء إينون الذى بلغ سمعه ، سوى أن أفروديتى، إلاهة الجمال اعترضته قائلة : إنما التفاحة لى .

فنظر إليها باريس ، ولم يكن قد أنعم النظر فيها من قبل، فرأى فتنة لا عهد له بها، وسحراً رائعا مشرقا من وجه فاتن، وأحس بانه يؤثر أن يستجيب لها ويفضل طاعتها .

فمن من الناس يقوى أن يقاوم إغراء الجمال وإن كان إغراؤه مصحوبا بالمخاطر .

قالت : أما أنا . . فلا أمنيك بسلطان ولا أمنيك بحكمة . . ولكنى أعدك بأن أجعل فى متناول يدك أجمل امرأة فى الوجود ،

فتتخذها زوجا لك ، وتسكن إلى أليفة محببة . امرأة لها شاراتى وسماتى .. لها فتنتى وإغرائى .. هات التفاحة .

هنا لم يتردد باريس ، بل أسرع فناولها إياها مشدوها مأخوذاً بجمالها . وما كاد يفعل ذلك حتى كانت الحورية إينون الوديعة تذرف الدمع سخينا ... فهذا إيذان بفرقة بينه وبينها .

(٦)

أختفت الإلاهات الثلاث بعد أن فازت أفروديتى (فينوس) بالتفاحة الذهبية . وكانت إينون ماتزال واقفة على مقربة من باريس ، وراء الخيلة . فتقدمت من باريس والدمع يرفض من عينيها ، وقالت له :

ـ والآن ماذا أنت فاعل أى باريس ؟

فأجابها قائلا :

ـ وهل تشكين فى إننى قاصد إلى أبوى ، وكاشف لهما عن حقيقتى بعد إذ أعلنتنى هيرا من أنا .

فقالت إينون :

ـ هذا حسن . وهو شىء يسرنى ويسعدنى ولكنى أسألك عما أردته بإعطائك التفاحة إلى أفروديتى . . أعنى عن رغبتك فى أجمل امرأة فى الوجود ، تلك التى وعدتك بها إلاهة الجمال .

فقال :

آه . . يؤسفنى هذا . . فما كنت أعز فى الدنيا مخلوقا قدر إعزازى لك . . . ولكنى لست أدرى ما أصابنى، فكأنما كل شىء قد استحال فى نفسى ، منذ أن شاهدت محيا الإلاهة الساحر . وكأنما بعثنى مرآها على التفكير فى معان من الجمال لا وجود لها فى عالمنا ، وبت تائقا ، مشوقا إلى هذه المجهولة التى منتنى بها .

فقالت إينون :

أيها الغادر . لو أتى علمى من قبل أنك هذا الانسان المتغير المتقلب ، لكنت جديرة بأن استكثر عليك ظهورى أمامك . غير أنى مولية بغير رجعة ، وأراك غير خليق بكلمة وداع أوجهها اليك .

ثم مالبثت إينون أن يممت صوب أمواج البحر واختفت فى الحال .

(٧)

أصبح باريس فريداً على جبل « إدا » ، لايرى حواليه إلا أغنامه وكلبه . . ومع أنه كان فرحا عامر الصدر بالأمل أزاء وعد « فينوس » ، فقد أهتز قلبه قليلا واغتمت نفسه لدى اختفاء إينون . ولكنه مالبث أن تناساها ، عندما لاحت بخاطره صور

المستقبل السعيد ، الذى ينتظره إذا ماعاد إلى قصر أبيه بمدينة طرواده . فنهض يسوق أغنامه حتى آب إلى كوخ مربيه ، وأعلمه بما كان، وبات يترقب أن توحى إليه أفروديني بما يفعل . فإذا كان الليل بعثت إليه حلما أبان عن الطريق التى يسلكها للوصول إلى أسرته .

فلما انقضى الليل ومتع النهار ، قام من فوره فتجهز للرحيل . وودع مربيه الشيخ وداعا حاراً ، واتخذ طريقه إلى طرواده . . . وعندما بلغ قصر أبيه، استأذن فى الدخول عليه، فأذن له بذلك ، وحين مثل بين يديه أفضى اليه بحقيقه أمره، ففرح أبوه بلقياه فرحا عظيما، واستدعى أمه التى أخذته بين ذراعيها حين وقفت على الخبر . . وأمر الملك والملكة أن تقام الافراح والولائم ابتهاجا بعودة ولدهما . . ذلك أنهما منذ أمرا باستبعاده وليداً ، وعاشا محزونين آسفين على الاستجابة لحلم لعله كان خادعا، ولتفسير لعله كان كاذبا . . وقد بدا لهما إذ ذاك، وندما على تفريطهما فى فلذة كبدهما، فأمرا بالبحث عنه وأعادته . ولكن أعيا البحث رجال مملكته . لذلك اقترنت عودته بالبهجة ، وعمت لها فرحة فى أرجاء القصر ، تردد صداها فى أنحاء المملكة .

(٨)

وحين اعتاد باريس أبهة الإمارة وحياة الترف بالقصور ،

تغير تفكيره، وتفتحت له ألوان جديدة من متع الحياة . ورأى فى السياحة خير شىء يستمتع به أمير لأبيه مثل مكانته . . ولعله كان يقصد بالسياحة البحث عن فتاة أحلامه التى وعد بها ، أو لعل أفروديتى أوحت بها إليه لتنيله بغيته . فقام يعد العدة ويبتنى السفن لهذا الغرض ، واستخدم فى ذلك صانعا ماهراً يدعى « بركليس »، واستعان به وبإخوته فى قطع أشجار الصنوبر المتكاثرة على جبال « إدا » فاتخذ منها هذه السفن .

وحين رأى تلقاءه أسطولا عظيما طرب أشد الطرب واستأذن أباه فى الانطلاق به فى عرض البحار .

وكان لباريس، من بين أخوته، أخ يدعى هيليناس، وأخت تسمى كاسندرا ، وكانا قادرين على استطلاع الغيب . وهذا علم علمهما إياه أبولون، أو قوباس، إله الشمس والموسيقى والشعر . فكاشفاه بما سيكون من وراء سياحته من خطوب ستحيق ببلده إن هو أقدم عليها، ونصحاه بالإقلاع عنها . . سوى أنه أعرض عن نصحهما ، وضرب به عرض الأفق ، ورأى ألا يحرم نفسه من ركوب متن البحر وغارب الأمواج، والاستمتاع بالنظر إلى تموجات أمواجه ، حين تصطخب وتتعالى حتى تبلغ عنان السماء، ثم تهبط وتتدانى حتى يصير لها استواء متغير متحول ، والسفن بينها متراقصة متلاعبة شاقة سبيلها إلى أجواء

جديدة ، وثغور لم يرها ، يطيب للانسان أن يستطلع فيها أحوال عالم غير عالمه ، ووجوه غير وجوه أهله وذويه .

صح عزمه إذن على الإبحار ، فاستقل سفائنه ، وشق بها بحرا خضما حتى بلغ أرض بيلوبونيز بعد رحلة طويلة ممتعة فأرسى عليها ، ووطئ أرض الشاطئ ، تاركا سفنه على ساحل لاكونيا .

(٩)

بلغ منلياس ، ملك إسبرطه عاصمة لاكونيا ، أن باريس ابن عاهل طروادة ، قد وفد إلى بلاده سائحا ، فرأى أن يستقبله ويحسن وفادته ، فخف إلى الشاطئ ، واستضافه بقصره . وهناك وقعت عين باريس على زوجة مضيفه « هيلين » ، فراعه جمالها ، وكأنما قد رأى فى صورتها وملاحتها أفروديتى من جديد .

وقال فى نفسه « ما أشك فى أن هذه موعودتى » . . . وهتف به هاتف أن تقرب إليها فتلك حقا موعودتك . وكان ذلك وحى من قبل إلاهة الجمال التى كانت جادة فى البر بوعدها . وإذا كان باريس قد فتن بجمال هيلين ، وهو جمال لا يبارى ، فما تلك بأول مرة يفتتن بها أمير ، فلطالما كانت قبلة أنظار ملوك اليونان قاطبة ، قبل أن تصبح زوجا لمنلياس . ولقد جاء زواجه منها نتيجة تعاهد بينهم على أن تختار زوجها إذا اشتد إلحافهم على طلب يدها من أبيها

تنداراوس ملك إسبرطه من قبل ثم طفق كل منهم يتوعده ويتهدده إذا زفت إلى غيره .

فتحير تنداراوس فى أمره . وأخيراً استضاف طالبى يدها جميعا وقال لهم :

ـ أيها الأضياف الأخيار .. إنى معجب بكم جميعا ، وإذا خيرت فى إختيار زوج منكم لابنتى ، فإنى يعضلنى الاختيار . فلجميعكم من المزايا والخلال مالا يملك معها الإنسان إلا أن يتمنى أن يكون زوج ابنته من بينكم . ولكن ما الحيلة وكلكم راغب فيها ؟ .. لذلك رأيت أن أجمعكم لتتفقوا فيما بينكم على أن يكون لها ان تختار منكم زوجها . فإذا اختارته ، عاهدتموه على أن تكونوا له ولها إخوانا وأخدانا ، وأن تكونوا فى عونه جميعا إذا حاول أحد التفرقة بينها وبينه .

فتصايحوا : بلى أيها الشيخ الكريم . . . ذلك نعم الراى إذ ذاك أطلت عليهم هيلين بين تهليلهم وتصايحهم ، فاختارت منلياس . وكان أخوه أجمنون ملك مسيناقد تزوج بأختها الكبرى « كليتمنسترا » من قبل . وتنازل تنداروس لصهره عن ملك إسبرطه من بعد ، فتربع على عرشها ، وحكمها وزوجه هيلين .

فليس من عجب وهـــذه قصتها أن يؤثر جمالها فى باريس ،

ويذهب حتى أغوار نفسه . ولما كان هو نفسه جميلا وضاح الجبين ، فقد وقع من نفسها ، وحرّك وجدانها كذلك ، فإذا هى مهيئة لطاعته ، واستقبال أى إشارة منه .

ولكنه لبث بالقصر أياما لا تواتيه فيها الفرص ، حتى كان أن ارتحل منلياس إلى «كريت» لزيارة ملكها «إيدومينياس» بدعوة منه . ولم ير من بأس فى أن يخلف باريس على قصره حتى يعود إليه .. وقد كان أبعد الأشياء عن ذهنه أن تكون الإساءة جزاء المعروف ، والخيانة جزاء الثقة .

وفى اليوم التالى لسفر منلياس ، انطلقت هيلين إلى حديقة القصر فى الصباح فأخذت تروح وتجىء فى مسالكها ومذاهبها ، وهى تختال عجبا بنفسها .

وكان اليوم من هذه الأيام التى تستهوى الأفئدة بجلالها وجمالها . إذ كانت شمس الربيع تغمر الكون بأشعتها الملطفة بنسمات وديعة ، كانت تهب بين الأشجار ، فتسمع مايشبه همس حبيب إلى حبيبه . . ويوم هذا شأنه تتفتح فيه القلوب ، وتتوق إلى المناجاة ، كما تتفتح الوردة ، وتتوق إلى أنداء الصباح .

وكان باريس فى غرفة الضيافة ، مطلا من نافذتها على الحديقة ، رجاة أن يمتع بصره بما تضفيه شمس الصباح على الأشجار من ألوان زاهية بهيجة . فأبصر بهلين وهى تتهادى فى مشيتها ، فأحس هزة فى

نفسه ارتجفت لها أوصاله ، وناداها : هيلين .

فأجابت : باريس .

وما كان أعذبه صوتا ، ما أن سمعه حتى قفز من النافذة ، وأسرع إليها ، فكادت تستقبله بين ذراعيها ، لولا حياء كان مايزال يعتمل بين جنبيها .

ولكن باريس تناول يدها ولثمها ثم قال :

ـ هيلين . . . يا صاحبة المفاتن كلها . . . أبوسع أحد من البشر ألا يسجد لجمالك .

فقالت . إنك تغالى ، وما أرانى إلا امرأة ككل النساء .

فقال : هذا تواضع يزيدك جمالا على جمال . ولكنى أحب أن أتكلم جاداً ، وألا أضيع الوقت إلا فيما يجدى . أفما ترين أن كلينا قد خلق للآخر . . . لقد أمضيت العمر خالى القلب ، أحن إلى صورة من مبتدعات الخيال ، فإذا هى اليوم حقيقة من مبتدعات الواقع ، وإذا أحلامى تلتقى عند طلعتك ، وإذا أنت مرجوى ومتمناى . فهل أنا واجد فى قلبك صدى ولو خافتا لما فى قلبى ؟

وكاد حياء النساء يغلب عليها ، فيعقل لسانها عن الجواب ، لولا أن دفعها دافع أشبه بإلهام من الآلهة ، حثها على الجواب فقالت :

ـ ما أراني مختلفة عنك . ولعل مابى يزيد على مابك . إن حياتى فى هذا القصر ، ينقصها أهم عنصر فى الحياة ، ليلونها بأبهج الألوان، ألا وهو الحب ؛ فما أحسست يوما بحب لزوجى ، وماعايشته وشاطرته الحياة إلا بقوة العادة . وقد جاء اختيارى له زوجا ، لأنى وجدته أفضل من تقدم لزواجى . أما المخلوق الذى يهز أوتار قلبى ، ويحرك مشاعرى ، فما كنت أحسبنى مصادفته حتى رأيتك . فإذا أنت حبيب ، وغاية ما أصبو إليه فى الحياة . فقال باريس :

ـ هلم إذن ، يا حبيبتى ، فلنغادر القصر ، ولنسابق الريح ، حتى نحتمى بطروادة .

(١٠)

كانت هيرا ، كبيرة الآلهة ، بقصرها بالأولمب ، تطل على باريس ، حين أغرى هيلين باللحاق به إلى مملكة أبيه . فشاهدت كل ما حدث ، ووعت كل ماقيل . وكانت ، برغم انقضاء عهد طويل على حادث التفاحة ، ماتزال تذكر تفضيله لأفروديتى عليها وعلى ربة الحكمة .

وقد ترك ذلك فى نفسها أثرا لا يمحى ، وجعلها تحقد عليه ، وتتربص به الفرص . بل لقد كرهت من أجله أسرته ، وكل من يمت إليه بسبب . فلما بدرت منه هذه الهفوة ، رأت أن تتخذها

ذريعة إلى تأليب ملوك اليونان عليه وعلى أبيه ... وسرعان ما بعثت إريس ، رسولة الآلهة ، إلى منلياس ، تنبئه بما حدث ، بعد أن لقنتها كل ما علمت . فاستقلت الرسولة جناحيها ، وأقلعت على متن الهواء ، حتى بلغت « كريت » ، حيث كان منلياس ضيفا على ملكها ؛ فأبلغته ما نزل به من مكروه . فأسرع منلياس فى العودة إلى وطنه ، فإذا قصره خال من زوجته ، فأيقن بصحة ما بلغه . بل وجد كذلك ، أن الآثمين قد حملا من القصر ما خف وغلا ثمنه . فاكتأب وحزن حزنا شديداً ، وجعل يستعرض فى ذاكرته الأيام التى قضاها مع هيلين على سعادة ، وهناءة ، فجزع ، وكاد يهلك أسى وغماً . واشتد حنينه إلى رؤيتها ، تعمر أركان قصره ، بمفاتنها من جديد . غير أنه عند ما فكر فى غدرها ، ثارت ثائرته ، ورآها غير جديرة بإعزازه ، واستشعر الرغبة فى الأخذ بالثأر منها ومن غاويها . ثم عاد فأحس بالضعف ، ووجد أن لا غناء له عنها ، وأن لا طاقة له بالعيش بدونها . فعلل النفس باستعادتها من باريس بالحسنى . وإذا فكر فى ملاحتها وفتنتها ، أيقن أن ذلك متعذر . فما يسهل على الإنسان ، أن يفرط فى غادة جميلة ، قد لاذت به ، وآثرته على غيره ، حتى على زوجها .

وإذن فلا مناص من الحرب ، ولا مندوحة من مهاجمة طروادة ،

حتى يتسنى له استعادتها مرغمة ، بعد إرغام خاطفها .

وما أن رأى منلياس أن الحرب هى التى ستكون فاصلا بينه وبين باريس ، حتى عزم على أن يستعين بأخيه أجمنون ملك مسينا ، وأعظم ملوك اليونان قاطبة . فاستقل إليه مركبة حربية ، وهناك وجده بقصره يتحدث مع نستور ملك بيلوس . وهو شيخ طاعن فى السن ، ولكنه كان ما يزال فتى الروح ، متحمسا ، فقص منلياس عليهما قصته ، وسألهما النصيحة ، فقال نستور :

ـ ما باليونان أحكم من «بلاميدس» . ومن الرأى أن أقصده فأستشيره فى الأمر .

فقال أجمنون : إذن فاذهب إليه من فورك ، فما يجب أن نتوانى فى استطلاع رأيه . ونحن بدورنا مارّان على ملوك اليونان جميعا ، لتذكيرهم بما عاهدوا أخى عليه ، يوم اختارته هيلين من بينهم .

(١١)

وإذا كانت هيرا قد عنيت بالأمر ، فقد رأت أن عليها واجبا آخر ، فاستدعت منيرفا ، وقالت لها :

ـ أحسبك ما زلت تذكرين سفاهة هذا الراعى ، الذى آثر أفروديتى علىّ وعليك ، واختصها دوننا بالتفاحة الذهبية ، فجعلها تزهو علينا بجمالها ، وتتطاول علينا بفخارها .

فأجابت ربة الحكمة قائلة :

ـ أجل .. يا كبيرة الآلهة .

فقالت هيرا :

ـ وأظنك قد تألمت لذلك طويلا ، وأن بنفسك حاجة إلى الأخذ بالثأر .

فأجابت ربة الحكمة مرة أخرى :

ـ أجل . . يا كبيرة الآلهة .

ـ إذن فقد حان الحين لأن نسعف النفس بحاجتها ..

هلم فاذهبي إلى من تستطيعين الذهاب إليهم من ملوك اليونان ، فأعدى نفوسهم لتلبية نداء أجمنون ومنلياس . وسأعنى من ناحيتي بأن أفعل فعلك . . عسانا نشعل نار حرب ، تحصد الزرع والضرع ، وتأكل الأخضر واليابس ، وتأتى على ملك طروادة ، حتى تصير خرابا يبابا .

(١٢)

إذ ذاك جهدت الإلاهتان ، كل من ناحيتها ، فى استفزاز قلوب أمراء اليونان . واتفقت جموعهم على الاجتماع عند أوليس على ساحل البحر ، فوفدوا إليها بسفائنهم ورجالهم . وفوضوا أمر القيادة العامة إلى أجمنون . وأجمعوا على مهاجمة طراودة ،

وافتتاحها ، والتنكيل بأهلها ، واستعاده هيلين . وكان أن وقعت عين أجمنون على الجموع الزاخرة ، وهى محتشدة ، مائجة ، أشبه حالا بالكراكى ، والبجع البرى ، إذ يحتشد فى المراعى المترامية على جانبي نهر « كايستر » ، ضاربا بجناحيه الهواء ، ضربا يرجع السهل صداه . . . أو أشبه حالا بالذباب ، إذ يزدحم حول الأبقار فى محالبها فى صباح يوم من أيام الصيف . حينئذ شعر بالكبرياء تملأ قلبه .

وكان قادة الجيش يتوسطونه ، كل يقود أتباعه ، مثلما يكون من الرعاة ، عند اجتماعهم فى مرعى واحد ، حين ينفصلون كل قطيع عن الآخر ، بينما أجمنون يراقبهم مختالا فخوراً ، كثور مائل بين صغار البقر .

(١٣)

وكيف لا يختال أجمنون عجبا . وقد كان هناك ، غير أخيه منلياس ، « ديوميدس » سيد أرجوس ، ونستور الشيخ ملك بيلوس الذى كان قد ذهب إلى « بلاميدس » لاستشارته ، فأشار بالحرب ، وأيدومينياس ملك كريت . كما كان هناك أيضا أودسيوس ملك إيساكا ، وأياس الصغير ، وأياس الكبير ، وكذلك آخيل بن بليوس . وهو ثمرة هذا الزواج الذى كان فاتحة الخلاف بين

الإلاهات الثلاث . وغير هؤلاء كثيرون من ملوك اليونان يقودون عشائرهم .

ولأودسيوس قصة طريفة . فلقد كان ملكا مشهوراً بالدهاء والذكاء . ولم يرقه فى بادىء الرأى ، أن يترك زوجته بنيلوب ليعبر البحار ، ويتعرض للمخاطر ، ويساهم فى حرب طروادة وقد كان قريب عهد بالزواج منها . فتصنع الجنون ، وأخذ يحرث رمال الساحل بزوجين من الثيران ، رجاة أن ينصرف أجممنون عن طلب معونته ، وإشراكه فى الحرب . غير أن بلاميدس كان أكثر دهاء منه ، فتناول طفله « تليماك » ، ووضعه أمام المحراث . فتوقف أودسيوس عن الاستمرار فى الحرث ، خشية على حياة ولده . فكان هذا دليلا على صحة عقله ، ومن ثم اضطر إلى اللحاق بالجيش عند أوليس .

ومن العجب إنه أصبح ، بعد ذلك ، أكثر ملوك اليونان تحمسا لهذه الحرب . حتى لقد ساهم بعد ذلك ، فى العمل على اجتذاب آخيل إلى خوض غمارها . وقد كانت أمه تيتيس ، إلاهة البحر ، راغبة عن ذلك ، لأنها كانت تعلم ، أن ربات الأقدار قد بيتت الموت لولدها فى غضارة الشباب ، مقرونا بالمجد إذا دخل هذه الحرب ، وادخرت له حياة طويلة خاملة إذا انصرف عنها . وقد آثرت ذلك ، فأبت عليه أن يبحر مع اليونان إلى طروادة ،

وبعثت به إلى ليكوميدس ملك جزيرة سكروس ليتوارى عنده . فلما نزل بقصره ألبسه ثياب إحدى بناته ، لتنصرف عنه الأبصار ويتعذر الاستدلال عليه . فلبث بينهن سعيداً بصحبتهن ، وقد علق قلبه بأحداهن ، وتسمى « ديداميا » ... ونسى من أجلها كل مايمت إلى الحرب بسبب . ولو قد أتيح له أن يظل بهذه الجزيرة أبداً ، لوجد فى القرب منها غناء عن المجد والفخار . ولكن أودسيوس تزيا بزى التجار ، ووفد إلى القصر ، ليعرض بضائعه على الأميرات . وفيما كن معنيات باستعراض القلائد ، والأقراط المطعمة بكرائم الدر ، والنسيج الموشى بالذهب والفضة ، وغير ذلك ، مما كان يحمل معه ، كان آخيل برغم زيه الأنثوى مأخوذا بدرع بديع ، كان أودسيوس قد دسه بين بضائعه . ففطن إلى أمره وأقنعه بوجوب العدول عن خطته والمساهمة فى الحرب لخف إلى أوليس يقتاد رهطه من المرميدبين .

(١٤)

عندما أحتشد ملوك اليونان عند أوليس بجيوش جرارة ، أقلعوا على ظهور السفن قاصدين طروادة . سوى أنهم ضلوا الطريق فى مبتدأ الأمر . وألقت السفن مراسيها على أرض « ثيثرانيا » ، ثم اضطروا عقب ذلك إلى العودة إلى هيلاس فاشلين . وكان مرجع هذا الفشل ، هو خيلاء أجمنون ، وزهوه ، وإغضابه الإلاهة

أرتميس بغطرسته وكبريائه . فهو حين شاهد الجوع والحشود التى تأتمر بإمرته ، ظن أنه قد أصبح من الحول والطول بما يجعله فى مصاف الآلهة ، وبما يخول له أن ينتهك حرمة غاب مقدس ، يحف بمعبد « أرتميس » ، فسمح لنفسه بأن يصطاد فيه . وكانت ظباء هذا الغاب وغزلانه عزيزة على هذه الإلاهه ، فلما رمى أجمنون واحداً منها بنشابة ، غضبت أرتميس غضبا شديداً ، وبعثت ريحا شمالية شرقية ، فعاقت الأسطول عن الإبحار . وكان لليونان كاهن يدعى « كلكاس » كان ماهرا فى استشفاف الغيب ، فسألوه عن بواعث فشلهم ، فصارحهم به ، وأكد لهم أن التوفيق لن يكون حليفهم ، مالم يكفر أجمنون عن ذنبه ... إذ ذاك قال أجمنون للكاهن :

ــ وماذا فى مقدورى أن أفعل لأكفر عن ذنبى ، وأزيل غضب أرتميس .

فقال كلكاس :

ــ إن استرضاءها رهن بتضحية غالية تعز عليك . وما أراها تبتغى عنها بديلا . كما لا أرى أن بوسعك النزول على مشيئتها .

فقال أجمنون :

ــ مهما جشمنى إرضاؤها ، فأنا فاعل ؛ فبادرنى بالتصريح عن إرادتها . فقال كلكاس :

ـ يشق على ، أن أحيطك علما ، بأن الإلاهة لن ترضى بغير « ابنتك » إيفيجينيا قربانا تضحى به على مذبح معبدها . إذ ذاك اضطرب أجمنون أيّما اضطراب ، ووجد أن الأمر عسير حقا ؛ وكيف يضحى بابنته ، وهى بهجة بيته ، وزينة حياته . وأحجم عن ترضية أرتميس ، مؤثرا ألا يبحر الأسطول ، ولو أنه كان فى الوقت نفسه حريصا على محاربة طروادة .

وقد ظل الأسطول وقتا طويلا معطلا عن الإبحار إلى أن نفد صبر حلفائه ، واضطروه إلى أن يرضى بتضحية ابنته . فبعث أودسيوس مكرها إلى مسينا ، ليحتال فى استدعائها إلى أوليس ، لتنفيذ مشيئة أرتميس .

(١٥)

بلغ أودسيوس قصر أجمنون ، وهناك التقى بزوجته كليتمنسترا ، فقالت له :

ـ لعل إقبالك علينا لخير ، يامالك إيساكا .

فقال أودسيوس ، وقد رأى أن اصطناع الدهاء أدعى لنجاحه :

ـ أجل لمحض الخير . فقد عن لأجمنون أن يزوج إفيجينيا من آخيل . وهو كما تعلمين أكبر أبطال اليونان ، شجاعة وقوة واقتدارا .

فقالت كليتمنسترا :

هذا أمر تطيب له نفسى . . . وأين يريد أجمنون أن يعقد هذا الزواج ؟

فأجاب أودسيوس :

ـ إنما يريد أجمنون ، أن يعقد هذا الزواج بأوليس ، على مشهد من ملوك « هيلاس » وأمرائها جميعاً . إذ ذاك استدعت كليتمنسترا ابنتها إفيجينيا ، وأمرتها بالتهيؤ للسفر .

(١٦)

عاد أودسيوس إلى أوليس ، وبصحبته الملكة ، والأميرة ، وأخوها الصغير أورستس . وهناك ظهر أن استدعاء إفيجينيا لم يكن للزواج ، وإنما كان للموت .

فتقدمت الأم إلى آخيل ، وأظهرته على الخدعة التى تسلح بها أودسيوس حتى أقنعها بإحضار ابنتها إلى أوليس ، ورجته أن يعمل جاهداً على تخليصها ، فسعى فى ذلك ، سوى أن رأى المجموع كان أعظم من سعيه . إذ ذاك لم تجد إفيجينيا بداً من الخضوع .

تقدمت المسكينة وسط الجموع التى إحتشدت للاحتفال بالتضحية بها . فقرأت فى وجوه الزعماء والقادة أن الأمر جد لاهزل ، والتفتت فإذا أبوها مولٍ حزين ، يسكب الدمع وهو واقف لاحراك به . إذ ذاك استشفت أن لامنجاة لها ، ورأت أن تصطنع

الشجاعه ، فشمخت برأسها ، وتقدمت إلى المذبح فى خطوات ثابتة ، ثم قدمت عنقها للسلاح .

وكأنما قد أحيطت بهالة من نور ، وأشرقت لها فتنة عشت الأبصار وإذا بأرتميس — إلاهة الصيد — وقد أعجبت بشجاعتها ، تختطفها فى سحابة ، وتنجيها من الموت . واستجابت لرجاء الجيش فيسرت طريقه إلى طروادة .

ثم اتخذت من إيفيجينيا ، من بعد ، كاهنة لمعبدها ، فعمرت به عمراً طويلا .

(١٧)

أبحر الأسطول بعد التضحية بإفيجينيا ، ميمما شطر جزيرة « تينيدوس » التى تقع على الساحل الطروادى ، وهناك انعقد الرأى على أن يبعث الإغريق بمبعوثين إلى طروادة ، ليفاوضوا أهلها فى استرجاع هيلين ، والمال المسروق ، وإلا كانت الحرب . وتشاوروا فيمن يبعثون فوقع اختيارهم على منلياس وأودسيوس ، لأن الأول هو الذى أوذى باختطافها والثانى أرشد الاغريق وأكثرهم دهاء وفصاحة .

فلما اختيرا ، لم يتمهلا فى الذهاب إلى طروادة ، وبلغاها بعد قليل . وهناك استقبلهما أمير طروادى يدعى « أنتينور » ، ورحب بهما ، وأكرم وفادتهما ، وتوسط بينهما وبين الملك بريام الذى رأى

أن يستشار الشعب ، عظماؤه ودهماؤه ، فى رد هيلين، ورد الغنيمة . وأمر أنتينور بأن يعقد مجلسا شعبيا أمام القصر للتشاور ، وسماع كلمة الوافدين .

ولما كان الصباح ، جمع أنتينور حاشية الملك وأهل مملكته ، وأشار على منلياس وأودسيوس بعرض قضيتهما على الملأ ، فنهض منلياس ثم قال :

ـــ يا أهل طروادة . . أنا منلياس ملك إسبرطة، قد استقبلت أميركم « باريس » ، ورحبت به ترحيبا عنيتُ به أن أربط ما بينكم وبين شعبى بروابط الصداقة . فكان جزائى أن انتهكت حرمة بيتى ، واختطفت ربته ، وهى عزيزة علىّ . فكان ذلك من باريس شر ما لقيتُ من جحود ونكران للجميل . وقد ساء ذلك رهطى وحلفائى ، فأجمعوا على محاربتكم . وجاءوا اليوم فى حشد عظيم ، وهم مصرون على الحرب . ولكنى ، ومازلت حريصا على مودتكم ، قد آثرت أن أسعى فى استرداد زوجتى بطريق ودى ، فجئت اليوم أسألكم إياها . فإذا أجبتم سؤلى ، عدت أدراجى من حيث أتيت ، وكأن شيئا مما حدث لم يكن . ولا يعقبكم هذا إلا الابقاء على صداقتنا ، كما أنى مبق على صداقتكم .

* * *

عند ذاك تعالت صيحات الاستحسان من كل جانب ، وهتف الشعب برد هيلين . فلما سمع باريس هذا الهتاف ، وكان بقصره بعيدا عن الجمع ، أقبل عجلان يصاحبه صغار أخوته . ثم اعتلى شرفا بين رهطه وقال :

ــ أراكم تهتفون بما يظهرني بمظهر العادى الآثم . وما دريتم أنى حينما جئت بهلين إلى هنا ، إنما كنت منقادا لمشيئة إلاهية .

وهذا رجل تمقته امرأته ، ومن الإثم إرادتها على معاشرته كرها . وأحرى بأن يقتضيكم الولاء لى ولعرش أبي ألا يكون هتافكم لغريب . وفى الحياة من الأسرار ما يجعل الحكم بظواهر الأشياء حكما خادعا . وما يجب أن تحكموا الظواهر فى أمرى وأمر منلياس .

هنا قام أنتينور ، وقال :

ــ أى باريس . . . ما جاءنا منلياس إلا فى إهاب صديق ، وما يليق بنا رده خائبا ، مهما كانت الحوافز التى حفزتك على الإتيان بزوجته إلى هنا ، سواء أصح ما تدعيه من تأثير الآلهة عليك ، أم لم يصح .

فقال باريس :

ــ لو كان يقصدنا كصديق ، لما رأينا وراءه هذا الأسطول

العظيم ، الذى يرسو على الشاطىء ، والذى وقعت عينى عليه من أسوار طروادة . ومن يدرينا بأنه مسترد هيلين ، ثم منصرف عنا بعد ذلك ؟ ألا إن ما ترون من توسلاته ، إنما هو خدعة المخادع الماكر . فلا تحسبنه ناسيا ماوترته به . فما يلبث بعد استرداد هيلين أن يعود إلينا فى إهاب عدو .

إذ ذاك تعالت أصوات كثيرة تؤيد باريس فيما ذهب إليه ، فنهض أودسيوس ، وحاول أن يقنع الطرواديين بأنه لا صحة لما يساور باريس من شكوك وقال :

ــ نحن وإن كنا جئنا فى حشد حاشد وبجيوش جرارة ما زلنا حريصين على صداقتكم . ولذلك رأينا أن نقدم سياسة اللين والتفاهم على كل شىء ، حتى إذا لم تجد ، كانت الحرب . ولكننا نحب أن نعلمكم إنا معشر اليونان حتى هذه اللحظة ، مانزال أصدقاء لكم ، على شريطة أن ترد هيلين إلى زوجها ، وتعاد الغنيمة التى أخذت معها .

فقال باريس :

ــ أيهذا المتكلم . . . عبثا تحاول أن تدخل فى روعنا غير ما يقتضيه منطق الحوادث . أنتم تعدوننى عاديا ، لهذا جئتم إلينا بأسطول ضخم ، يحمل جنوداً وبنوداً لاتعد ولاتحصر . ولو أردتم

المسالمة ، لكان وفودك علينا مع صاحبك خاليا من مظاهر التهديد التى نستطلعها فى حشد الحشود والتأهب للحرب . أما وقد أخذتم للحرب عدتها ، فقد أصبحت الحرب هى التى تفصل بيننا.

فإليكما عنا وإلا كان لنا معكما شأن آخر .

فقال منلياس :

— أيها الخائن المتوقح . . . ما انتظرنا منك إلا أن يكون ذلك هو استقبالك لنا . ولكننا جئنا طامعين فى كرم من هم أسن منك وأحكم وأعدل . ونحن إذ نتوجه بطلب هيلين إلى أحد ، فإنما نتوجه إليهم بذلك .

عندما سمع باريس هذه الإهانة ثارت ثائرته ، وحاول أن يفتك بمنلياس ، وكان أعزل ، فاعترضه أودسيوس . إلا أن أخوة باريس الذين صاحبوه أمسكوا بأودسيوس ، وشهروا سيوفهم فى وجهه ، وكادوا جميعا أن يوردوا المبعوثين موارد الحتف ، لولا أن تدخل أنتينور والمسنون من حاشية الملك فى الأمر ، وردوا باريس إلى الاعتدال .

ولكن منلياس وأودسيوس لم يرضهما هذا الاعتداء ، واضطرا إلى العودة إلى رهطهما بتينيدوس ، وقصا على الإغريق ما حدث فعقدوا العزم على الحرب .

ولم يتكاسل الطروادیون فی الاستعداد للأمر بعد إذ علموا بالحشد الهائل الذی احتشد لمحاربتهم ، وسألوا محالفیهم معاونتهم وشد أزرهم ، فاجتمع لهم مجموعة كبيرة من الأبطال لا تقل عن أبطال الإغريق ، قوة واقتدارا ، فكان هناك غير هكتور ، أكبر أبناء بريام الذى أسندت إليه القيادة ، ابن عمه إنياس بن أنشيز من الإلاهة أفروديتى ؛ وقد جاء يقود أهل مدينة دردانيا ، ثم بنداروس ، وأيسياس ، وسيسناس ، وسار بيدون ، وغيرهم ممن عز عليهم أن تهاجم مدينة طراودة ، وأحبوا الدفاع عنها بأتباعهم ورجالهم .

(١٨)

عند ما هبط الإغريق إلى أرض الشاطىء ، وجدوا الطروادیين متأهبين لقتالهم . وما كاد «بروتسيلوس» ، أحد قادة اليونان ، يطأ الساحل الطروادى ، حتى رماه هكتور برمحه فأرداه . ولكن ذلك لم يثبط اليونان ، فتزاحموا إلى الشاطىء بغية الاشتباك فى قتال مع أهل طروادة ، فأظهر هكتور ، وسيسناس بن بوزيدون إله البحر ، براعة فائقة ، وأعملا السيف فى اليونان .

وفى هذه الأثناء ، أقبل آخيل يقتاد عربته ، باحثا عن عدو جدير بلقائه ، فشاهد سيسناس ، وهو يفتك بجميع من حوله ،

فهاجمه فى الحال ، ثم رماه برمح فى صدره ، فارتد الرمح دون أن يصيب سيسناس الذى أخذ يضحك ملء شدقيه ، ويسخر من خصمه ثم قذفه برمحه ، فاخترق درعه النحاسى ، وبلغ بطانته الداخلية ، فجن جنون آخيل ، ورماه مرة بعد مرة ، دون أن يصيبه بجراح فأدهشه الأمر ، وتفحص رمحه ، فما وجد به نقصا ، فرمى به أحد أعدائه ، فأصاب منه مقتلا ، وخر صريعا على الأرض .

وما لبث أن سحب آخيل سلاحه من صدره ، ثم قال :

ــ ما تغيرت يدى ولا سلاحى .. فلماذا لا أستطيع قتل ذلك الرجل .

ثم جرب مرة أخرى أن يصيب سيسناس ، فارتد سلاحه كأنما قذف به حائطا . ولكنه ترك أثرا من الدماء حيث كانت ضربته ، فظن آخيل أخيرا أنه قد ظفر بعدوه . ولكنه ما عتم أن أدرك خطأ ظنه ، حين رآه حيا يحاول مهاجمته ، فطرح رمحه وسحب سيفه واندفع حانقا مغيظا نحو سيسناس ، فتقهقر هذا الأخير إلى الوراء ، فعثر بحجر كان خلفه ، فسقط على الأرض ، فانقض عليه آخيل ونزع خوذته وقبض على عنقه بيديه حتى تعطلت أنفاسه .

حينذاك أشفق پوزيدون إله البحر على سيسناس ، وهو ولده ، فعمل على اختطافه قبل أن يمثل به آخيل . فلما ظن آخيل أن

سيسناس ، قد فارق الحياة ، ونهض يريد نزع عدته الحربية عنه ، شاهده يستحيل إلى صورة بجعة لجناحيها خفق وتصفيق ، قد استقلت جناحيها فى قبة السماء الزرقاء ، آخذة سمتها نحو البحر .

فتناول آخيل رمحه ، وأسرع إلى الجانب الآخر من ميدان القتال ، حيث كان هكتور وإخوته منهمكين فى الحرب . ففاجأ تروالوس ، أصغر أبناء بريام وأجلهم ، فقتله . وأخذ يعمل حسامه فى رقاب الطرواديين ، حتى اضطرهم إلى الاحتماء باسوار طروادة . ولما كان يبدو أن الحصار سيستغرق زمنا طويلا ، حفر الإغريق خندقا وابتنوا سورا يصلون منه إلى سفنهم ومعسكراتهم ، بواسطة خمسة أبواب ، وفى هذه الأثناء استولى آخيل على طيبة بلدة «إيتون» ، والد أندروماك زوجة هكتور ، وفتح «ليرنساس» حيث استبى منها سبية جميلة تدعى بريسيس ، اتخذها زوجا له . واستبى منها أجممنون سبية أخرى تدعى كرسيس ، وهى ابنة كريسيس كاهن أبولون . فلما تسامع أبوها بالخبر ، التمس طريقه إلى معسكر اليونان ، وسأل المثول بين يدى أجممنون ، فأذن له بذلك ، بعد أن رفض استقباله فى أول الأمر . فلما صار فى محضر القائد الأكبر قال :

ـ مولاى . . . استبيت ابنتى ، وباعدت بينى وبينها ، وأ

شيخ فان ، مرعش ، أشد ما أكون حاجة إليها . وقد جئتك طامعا فى كرمك ، لعلى بأن مكان الآلهة فى قلبك مكان كبير . وأنا يا مولاى خادمهم ، وكاهن إله النور « أبولون » . فأنا حقيق بأن أظفر ببعض ترضيتك . فهل لك يامولاى أن ترد على ابنتى .

فقال أجمنون :

— أيها المتجرىء على بمثل هذا المقال . . . كيف تتوهم أن فى مقدورى أن أعيد إليك ابنتك ، وقد أصبحت أعزها وأرى مكانتها تتدانى من مكانة زوجتى كليتمنسترا ، وقد عقدت العزم على ضمها إلى جوارى حين الأوبة إلى وطنى أرجوس ؟

— ليس من حقك ، ياملك أرجوس ، أن تحرم كاهن أبولون من ابنته ، إذا كنت تقدس الآلهة حقا . هذا فضلا عن دواعى الإنسانية التى تقتضيك أن ترعى للشيخوخة حقوقها . . . وهاأنذا قد جئت إليك ، والسنون تثقل كاهلى ، والشيب مشتعل فى الرأس ، أستجديك مايليق إسداءه من معروف إلى شيخ مثلى .

— أيها الكاهن . . . إنك تسأل شططا ، وتنسى أشياء كثيرة لايحسها قلبك البارد . تنسى أننى محب لابنتك . وهذا بيان كاف أردك به عن بابى .

— وأنت تنسى أنه فى مقدورك أن تستعيض عن حب ابنتى

بكثير مما سيتهيأ لك أخذه من السبايا ، على حين لا أستطيع أن أستعيض عن ابنتى بفتاه سواها . . . أتوسل إليك أن تردنى مصحوبا بها .

ـ لقد ضقت بك ذرعا . . . أعزب عنى أيها الكاهن ، وإلا قتلتك شر قتلة . بل أقسم بجوبتر ، رب الآلهة ، إنى إذا رأيتك مستأنيا أمام بابى ، لأعاجلنك بضربة توردك موارد الحتف .. سر ولا تعد على مسامعى توسلاتك التى أصبحت أبغضها بمقدار حبى لابنتك .

إذ ذاك لم يجد الكاهن مندوحة عن المسير ، فسار مطأطىء الرأس ، دامع العين ، واجف القلب . فإذا ابتعد عن معسكر اليونان ، وأصبح تلقاء شاطىء البحر ، رفع يديه إلى السماء متضرعا إلى أبولون أن يثأر له .

وبلغت توسلات الكاهن إلى « إله النور » ، فاستشاط غضبا ، وعز عليه اعتداء أجمنون على ابنة كاهنه ، ورده كسيفا محزونا ؛ فأعلنها حربا على اليونان لا هوادة فيها ولا لين . فإذا السماء ، وقد تراكمت بها السحب السوداء ، تمطر جيش اليونان وابلا من السهام دون انقطاع ، فقتلت منهم جندا كثيرا ، وأشاعت الفزع فى قلوبهم . وزاد الطين بله تفشى الطاعون فيهم . فما مضت تسعة أيام إلا

وأهلكت السهام والطاعون عدداً لا يحصى ، وكادت تأتى على جمعهم كله ، وأخذ القادة والرؤساء يفكرون فى إعداد العدة للرحيل عن طروادة ، لولا أن عز على آخيل أن يبوء اليونان بالفشل والخسار . فاستدعى كاهنهم كلكاس ، وسأله على ملأ من الجند بمحضر من أجمنون أن يدلى بما يعرف من أسباب هذا الغضب الذى يعاندونه فى هذه الحرب التى تعلنها عليهم السماء ، فقال كلكاس :

ــ ليس بوسعى أن أصارحك بالحقيقة ، يا آخيل ، إلا إذا وعدت بحمايتى . فما أشك فى أن مقالى سيغضب ملكا عظيما من ملوك الحملة ، لا يوقينى غضبه إلا حمايتك . فقال آخيل بلا تريث :

ــ أنت فى حمايتى ما صرحت بما عندك ، حتى وإن أغضب تصريحك أجمنون نفسه .

ــ إذن فاعلم أن أبولون غاضب منا ، لأن مولانا أجمنون قد أهان كاهنه كريسيس ، ورده باكيا مستعبرا بغير ابنته .

وقد صح عزم هذا الإله على محاربتنا ، والحيلولة بيننا وبين النجاح فى حملتنا ، مالم ترد هذه السبية مكرمة معززة إلى أبيها بغير فدية . . . فضلا عن قربان يقربه أجمنون إليه من الثيران السمينة .

ما كاد أجمنون يسمع هذا التصريح حتى وقف مهتاجا ، صاخبا ، يكيل السباب إلى الكاهن ، ثم قال :

ـ يا كاهن النحس . . . أبداً ما أسمعتنى شيئا يبهج صدرى ، وما تنبأت عن شيء إلا أساء إلىّ ، وأصاب مهجتى فى الصميم ؛ وما العهد بتضحية ابنتى ببعيد . واليوم تصوب طعنة جديدة إلى قلبى . ولكن لا أرى لك ذنبا فيما تكشف عنه . فما أنت إلا متنبىء بأشياء تريدها الآلهة .

ثم التفت أجمنون إلى اليونان وإلى آخيل ، وقال :

ـ حسنا ... سأنزل عن جاريتى ، وسأصدر أمراً بردها إلى أبيها . ولكن كيف يجوز وأنا رئيسكم أن أبوء من الحرب بغير مكافأة أو جزاء . لقد نال أكثركم نصيبه فى أسلاب الحرب ، وأصبح لكل قائد سبية ترد عنه السآمة والملل ، وتؤنس وحدته إذا آوى إلى خيمته . ولكن أنا .. أيصح أن أحرم من جاريتى ، ولا أعوض عنها بجارية أخرى ؟

فأجاب آخيل :

ـ من أين يعوضك اليونان عن جاريتك ، وقد وزعت السبايا وما نستطيع أن نسأل أصحابها إعادتها . ولكنا نسألك أن تصبر حتى يفتح طروادة ، فنجعل نصيبك خير نصيب ، بل قد نضاعف لك ما أنت جدير به من جزاء .

فقال أجمنون غاضبا :

ـ ماأراك إلامسرفا فى خدع نفسك ، يا آخيل . ومتى كنت تحسبنى أرضى بهذا الحكم الذى يجعلنى ، فى الوقت الراهن ، أقلكم مكافأة ؟ ... لا ... لا ... سأرد كرسيس ، حسنا ، لأن صالح جيشى شىء أضعه نصب عينى . ولكنى مستعيض عنها بفتاتك ، أو بما أصاب أودسيوس ، أو إياس من جزاء .

عندذاك شاع الغضب فى صدر آخيل ، ولم يستطع أن يتمالك نفسه فقال :

ـ ياللسفاهة والخسة ... كيف تبغنا مثل هذا الرجل الذى يعلم أنا جميعا ، لاشأن لنا بهذه الحرب ، وأنا ما اشتركنا فيها إلا إكراما له ولأخيه ، وهو مع ذلك يضن علينا بأن يكون لنا جزاء ماصنعت أيدينا ؟ .

أو ما تعرف ، أيهذا ، أن ثقل الحرب وأخطارها تقع على كاهلى حين تستعر ، وحين لاأراك إلامتواريا لاتجترىء على النزال والطعان والمصاولة . ولكن يبدو أنك لن تعرف قيمتى إلا إذا هجرت الحرب ، وعدت إلى وطنى ، فقال أجمنون حانقا :

ـ هلم فاذهب واهجر الحرب ، إذا أردت ... أو ظننت أننى مستجديك البقاء ؟ ... كلا .. إن بين اليونان من الأبطال من يوقرنى ، ويوفينى حقى من الاحترام أكثر مما تفعل . وما أراك

إلا مصدر خلاف على الدوام . اذهب فما يهمنى غضبك ، وخيرلك أن تتجنب معاونتنا على أن تبقى هنا موضعا لازدرائى واحتقارى ، وإن تكن الآلهة قد حبتك بقوة جديرة بالاعتبار .

ولكن لا يجب أن يعزب عنك إننى أوازيك فى القوة إن لم أزد عنك ، وبين رجالى من لا يقل عن المرميديين (التساليين) رجالك الذين لا تفتأ تباهى بمهارتهم واعتيادهم خوض القتال . وأحسبك تؤثر أن تزهى بولايتك عليهم على أن تعمل بمعاونتهم عملا يوليك المجد والفخار حقا . هيا . . اعزب عنى ، — أيها المدلّ بنفسك .

لم يكن بوسع آخيل ، وقد احتدم الغيظ فى صدره ، أن يجيب على هذه اللهجة القاسية . بل انعقد لسانه ، وتصاعد الدم إلى رأسه ، فاحمرّ محيّاه . ثم لبث فترة على هذه الحال ، وهو لا يبدى حراكا . . وما عتم أن صاح صيحة ارتجت لها الأرض ، فأطبق على مقبض سيفه ، وانتزعه من غمده ، لأن نفسه حدثته بأن يطيح برأس الزعيم المتوقح . ولكنه تردد قليلا ، لا عن رغبة ، ولكن عن تفكير ، حتى إذا همّ بضرب أجمنون شاهد بلاس أثينا (منيرفا) واقفة إلى جواره ، وقد ظهرت له وحده ، لا يراها غيره ، ثم همست فى أذنه قائلة :

— هدىء من روعك يا آخيل . فما يليق أن يسوقك الخلاف

بينك وبين أجمنون إلى قتله . . هذا شيء لا يرضيني ولا يرضى كبيرة الآلهة هيرا .

ـ أو يرضيكما إهانتي ؟

ـ لا . ولكن أجمنون سيكفر عن ذلك تكفيرا سوف يبدو لك وسوف يرضي كبرياءك ، وبحسبك أن تعلم أنني مبعوثة الآن من قبل كبيرة الآلهة لفض هذا النزاع . فأعد سيفك إلى غمدة .

ـ حسنا . . ليس بوسعي أن أعترض رغبة الآلهة .

ثم أعاد آخيل الحسام إلى جرابه ، واختفت منيرفا . وكان أجمنون ما يزال واقفا تلقاء آخيل ، كمن يتحداه بلسان الحال ، كما قد تحداه بلسان المقال . . فما وسع آخيل إلا أن يقول ليخفف عن صدره ثقل الغيظ :

ـ أيها المتكلم بلسان بذيء ، أو تحسب أنك بطل جدير بألا تخجل من التباهي والانتقاص من قدر الغير . . . ما أنت إلا جبان فرار . . فما رأيناك قدتنا مرة ، وإن كنت قائدنا العام ، ولا رأيناك قتلت خصما جديرا بأن يعلي قدرك في مواطن القتال . . ولكنك هياب تخاف من مواجهة الموت . ولو وزنك اليونان بميزانك ، لكانوا خلقاء بألا يرتضوا رئاستك عليهم . ولكني لفرط الدهشة أكاد

أحسب أنهم على غرارك ، وأنك ما تحكم إلا جمهوراً من الجبناء .

إنى مول عنكم ، معتزل الحرب ، وإن غدا لناظره قريب .

فما تلبث أن تحين الساعة التى تعض فيها بنان الندم ، لأنك أهنت واعتديت على خير أعوانك . أما بريسيس . . فما أمنعها عنك . . خذها إذا شئت وافعل ما بدالك . . إننى منصرف عنك .

* * *

لم ينبث أجمنون بحرف ، بل ولّى آخيل ظهره احتقاراً ، واتخذ طريقه نحو خبائه ، وتفرق الجمع الذى رأى هذه المشادة بين البطلين . . ثم انصرف آخيل إلى شاطىء البحر حيث كانت سفائنه ورجاله .

(١٩)

حين بلغ أجمنون مقر قيادته ، أصدر أمره بأن تعاد كرسيس إلى أبيها ، مع بعثة على رأسها أودسيوس ، لترضية كاهن أبولون . وأرسل إلى البحر سفينا وضع على ظهرها قربانا من مائة ثور ، واقتاد إليها كرسيس بنفسه ، ثم أقلعت السفين ، وهو يشيعها بأنظار خاشعة ، وأمر أجمنون رجاله بأن يتطهروا . ففعلوا ، وألقوا إلى البحر المـاء الذى اغتسلوا به ، وأخذوا بدورهم يقربون القربان إلى الآلهة ، وينحرون الذبائح على مقربة من

الأمواه ، فانتشرت دماؤها على أعالى الموج، وأخذ دخانها يتصاعد نحو السماء .

وبينما كان الجيش معنيا بهذا ، استدعى أجمنون وزيرين من وزرائه ، وأمرهما بالذهاب إلى خباء آخيل ، واستحضار بريسيس تنفيذا لوعيده الذى هدده به ... وقال لهما :

ـ إذا رفض آخيل أن يسلمها إليكما ، فسأذهب إليه بنفسى على رأس ثلة من المشاة ، فيكون ذلك بمثابة إهانة يحسها فى القلب.

ثم انطلق الوزيران حتى أشرفا على خباء آخيل ، وكان جالسا أمامه مع صديقه بتروكل الذى اعتزل الحرب ، كذلك ، إكراما لصاحبه . فلما رأياه تلبّسثا قليلا مهابة وخوفا . . . فناداهما آخيل ، وتلقاهما بالترحاب قائلا :

ـ ليس الجرم جرمكما ، وما أنتما إلا رسولان . . ولكن أجمنون هو الذى تقع عليه تبعة هذه الاهانة .

ثم خاطب صديقه بتروكل قائلا :

ـ اذهب يا بتروكل إلى خبائى فاستحضر لهما بريسيس .

* * *

أطاع بتروكل أمر صديقه ، وأخرج بريسيس من خبائها، ووكل أمرها إلى الوزيرين الذين اقتاداها نحو معسكر أجمنون . ولم يستطع

آخيل أن ينظر إلى الجهة التي تيمموها، فأشاح بوجهه بعيداً، وظهرت في مقلتيه دموع حائرة مالبثت حتى سالت على وجنتيه .

(٢٠)

كانت الإلاهة تيتيس في قصر أبيها نيروس بقاع البحار، حين شعرت بمقدار مايهتاج بصدر ولدها من أحزان وثورة، وأحست به يدعوها لمواساته، فخفت إليه، فوجدته منفرداً عن رجاله، آخذا ركنا منعزلا على الشاطىء، والدمع مايزال بمقلتيه، فربتت على شعره وقالت له :

— ولدي . رفه عنك . فما يحزنني أن أراك حزينا . فنظر إليها آخيل، ثم أخذ يديها بين يديه، وأخذ يشبعهما تقبيلا ثم قال :

— أماه . . لقد جرح أجمنون كبريائي واستلبني غادة غنمتها بكفاحي، ومصاولتي للأبطال حين أفتتحت طيبه .

ثم سرد عليها جميع ماحدث، فقالت :

— هذا شيء علمته قبل أن تقصه علي، وسيكلف أجمنون غاليا . . سأقصد إلى زوس كبير الآلهة فأساله أن ينصر طروادة على اليونان، حتى يعلم أجمنون مقدار ما كان يجنيه من نصر، لو أنه حرص على إرضائك، وتجنب إغضابك . ولكن يسرني الآن أن أراك عاملا على التخلص من همك، ضاحك السن .

فافتر ثغر آخيل عن إبتسامة أرضت تيتيس ، فودعته ، ثم امتطت الأمواج البيضاء ، واستحالت بعد قليل إلى بخار ، تصاعد نحو السماء .

فعلم آخيل أن أمه قد أرتفعت إلى زوس لتساله إنزال العقاب باجمنون وجيشه .

(٢١)

حلقت تيتيس فى الفضاء الواسع حتى بلغت ذروة الأولمب ، فالفت زوس كبير الآلهة ، يتطلع إلى العالم ، فقالت له بعد أن حيته :

ــ كثيرا ماخدمتك ياكبير الآلهة ، ولعلك تذكر لى خدماتى . وقد جئت اليوم اقتضيك رد المعروف فى شان ولدى آخيل ، إذ تجاهل أجمنون قدره ، واغتصب منه جاريته « بريسيس » فانتقص من قدره على مسمع ومرأى من رجاله ، واضطره بوقاحته إلى اعتزال الحرب . فاجاب زوس :

ــ حقا ، إن لك منّا كثيره علىّ ... ولكن ماذا تريدين أن أفعل حيال ماتذكرين ؟

فقالت تيتيس :

ــ أريد أن تظاهر الطرواديين على الإغـــريق حتى يكون النصر حليفهم .

فقال زوس :

ـ أو ما تعرفين أن ذلك يؤلب علىّ أهل بيتى : ويغضب زوجتى « هيرا » وابنتى « پلاس » ، اللتين طالما اتهمتانى بالتحيز لطروادة ؟

فقالت تيتيس :

ـ أو يرضيك أن يهان ولدى دون الثأر له ؟ ... إننى أتوسل إليك أن ترد إليه مجده ، وما يكون ذلك إلا بانكسار الإغريق بعد مغادرته لصفوفهم ، فيضطرون إلى الاعتراف بفضله وترضيته

فقال زوس :

ـ حسنا ... سيكون لك ما تطلبين .

فقالت تيتيس :

ـ شكرا يا مولاى :

ثم استقلت سحابه بيضاء ، هبطت بها إلى الامواج الهادرة ، حيث أخذت سمتها إلى قصر أبيها فى أعماق البحر ، وصعد زوس إلى قصره بالسماء .

(٢٢)

اكتحلت العيون بالنوم ، ورفرفت أجنحته على العالمين : عالم الآلهة وعالم البشر ، إلا زوس فقد ظل وحده ساهراً يفكر فيما دعته إليه تيتيس ، ويدبر خير الوسائل للاقتصاص لآخيل من

الهيلانيين . فرأى أن يبعث إلى أجمنون بحلم خادع ، يزين له المبادرة إلى مقاتلة أهل طرواده أمام أسوارها قبل أن تحين الفرصة الملائمة . فاستدعى الحلم ، وقال له :

ـ اذهب أيها الحلم الخادع إلى سفن الإغريق ، فأبحث بينها عن خباء قائدهم أجمنون بن أتريه ، وقل له ، اذ تراه نائما : أسرع إلى تسليح جيشك ، وانهض به إلى القتال دون توان . فهذا أوان الاستيلاء على طروادة ، لأن سكان قصور الأولمب (الآلهة) قد أجمعوا على فض أيديهم من معاونتها ، اقتناعا برأى جينون (هيرا) كبيرتهم .

فلما سمع الحلم هذا الأمر ، شق أجواز الفضاء حتى حلق فوق سفن الإغريق ، والتمس بينها مقصورة أجمنون ، فألفاه مستغرقا فى النوم ، فمال على رأسه فى صورة « نستور بن نيليه » ، أحد قادة الجيش ، وقال له :

ـ مابالى أراك نائما ، أيها القائد الأعلى ، وبيدك مصائرنا ؟ أو يخلق بمن وضعت على عاتقه جسيمات الأمور أن تغتمض عيناه الليل بطوله ؟ أعرنى سمعك ، أنا مبعوث « جوبتر » إليك ، جئت أزين لك الإسراع إلى القتال لصلاحية هذه الآونة لفتح طروادة ، حيث أجمع الآلهة ، نزولا على رأى جينون ، على معاونة الإغريق ، وعلى رأسهم زوس الذى بعثنى إليك .

ثم إذا أنهى الحلم هذه الرسالة إلى أجمنون ، وهو فى أحضان النوم ، أبتعد عنه ، وقد خلف وراءه آمالا كان عليها بدورها أن تداعب أجمنون بالغلبة ، وتمنيه بالنصر وافتتاح طروادة حين يقظته .

(٢٣)

وحين استيقظ أجمنون ، جمع قادة الجيش ، وقص عليهم رؤياه . ورأى ، قبل أن يأمر باستئناف القتال ، أن يختبر روح رجاله المعنوية . فاتفق مع القادة على إيهام الجند بعزمه على الانصراف عن الحرب ، والعودة إلى بلاد اليونان ، وتسريح الجيش ، حتى إذا رأوهم جادين فى التأهب للرحيل ، ووقفوا على دخيلة نفوسهم ، وعرفوا مواطن الضعف فيها ، عالجوها وحالوا بينهم وبين بغيتهم ، وأقنعوهم بوجوب الاستمرار فى القتال . وإذا أظهروا عزيمة صادقة فى التشبث بالحرب ، كان له أن يطرب بجيشه ، ويعتد برجاله ، ويمضى فى الفتح دون ريث ، أو حاجة إلى تقوية عزائمهم .

وما انعقد الاتفاق على هذا ، حتى جمع كل قائد أتباعه ، ووقف بينهم أجمنون قائلا :

ـ أيها الرفاق . لقد أثقلتنا الحرب ، وأعجزنا فتح طروادة ، وبات علينا أن نفكر فى العودة ، بعد أن لبثنا أمامها تسع سنوات

دون أن نفوز بفتحها ، فإنه يخيل إلي أن زوس يأبى أن يمد إلينا يداً ، وإلا لكان النجاح حليفنا منذ بدء الحصار ؛ ولعله لا يمد يده إلينا أبداً فى هذه السبيل ، على حين قد برح بنا الشوق إلى أولادنا ونسائنا . ولخير أن نمضى قبل أن يهلكنا كر الأيام ومقاومة العدو .

ما كاد أجممنون يفوه بهذا الحديث ، حتى دب الهرج والمرج فى صفوف رجاله . وما لبثوا أن اتجهوا نحو سفائنهم ، وهم يتصايحون من الغبطة والشوق إلى أوطانهم . وكادت السفن أن تقلع بهم ، لولا أن تداركت الإلاهة « جينون » الأمر ، فقالت لمنيرفا :

ـ ما خطب هؤلاء الاغريق؟.. أيجمل بنا أن ندعهم يرحلون؟ أيفوز بريام بالنصر فى نهاية الأمر ؟ كلا . لقد أعلنتها حربا على الطرواديين ، لاهوادة فيها ولا لين ، حتى يحل الخراب بمدينتهم . اذهبى فامنعى رحيل اليونانيين بما وسعك من جهد .

نخفت منيرفا طائرة حتى بلغت إلى حيث كان أودسيوس واقفاً . وكان أشبه بجوبتر فى وقفته ، وعلى سيماه معالم الحزن العميق . فاقتربت منه الإلاهة ، ثم قالت له :

ـ يا ابن لايرت . . أتفرون هكذا ، تاركين لبريام هيلين التى هلك من أجل استعادتها كثير من رجالكم ؟. اذهب إلى الجموع فاستوقفها بقوة إقناعك ، وحدثها عما يلاحقها من عار ، إذا تحولت عما كانت بسبيله .

عرف أودسيوس صوت الإلاهة فأتمر بأمرها ، وأسرع إلى البارزين من رجال الجيش ، وأعلمهم ما فى عمل رجالهم من خور وضعف، وأفهمهم أن أجمنون إنما كان يريد اختبارهم حين خطب فيهم خطبته ، وناشدهم أن يبذل كل جهده فى منع فريقه من الرحيل؛ فاستنفذوا الوسع فى ذلك حتى أفلحوا فى إقناع الجيش بضرورة البقاء للحرب . إذ ذاك ثارت ثائرة رجل من بينهم يدعى تيرسيت ،وكان قبيح الوجه كريه المنظر ، فوقف يطعن فى أجمنون قائلا :

ــ وماذا يرغب أجمنون من مزيد ؟ . إن فى أخبيته وخيامه من الحديد ، والنحاس ، والنفائس ، والجوارى ، ما يكفى شراهته. أم تراه طامعاً فى الذهب الذى يفادى به الطرواديون أبناءهم ،حين يتأتى لأحدنا أن يأسر أحداً منهم ؟ . أيها الاغريق ، ما أراكم ، وقد اتصفتم بالجبن ، إلا نساء أرتضت الخضوع لمثل هذا الطامع الطاغ الذى يؤثر نفسه بما تصنع أيديكم . ولو كنتم غير ذلك ، لكان أولى بكم أن تعودوا إلى أوطانكم ، تاركيه وحده ليستأثر بطروادة وذهبها إن أمكنه أن يفعل . إنه رجل لا يعرف قيمة رجاله . وما العهد بإغضابه آخيل ببعيد . ولو لم يكن آخيل حليما ، بل ضعيفا ، لكانت الأهانة التى وجهها إليه أجمنون ، آخر اهانة يمكن أن يوجهها إلى رجل .

هكذا تحدث تيرسيت ، ولكن أودسيوس هاله الأمر، فوقف إلى جواره وقال :

ـ أيهذا المجنون ، الزم الصمت مع صوتك الجهورى المنكر فما أراك إلا آخر رجل يليق بأن يتعرض للملوك بهذا الخطاب . إن لأجمنون حقا فى أن تكون له أسلابنا وغنائمنا ، وهو قائدنا الأعلى . ولكن أنت أيها القبيح القذر ، ما شأنك وهذا ؟ قسما لأنزعن عنك لباسك ، ولأطردنك عاريا إلى سفينتك ، إذا عدت إلى سفاهتك مرة أخرى ؛ ثم ضربه أودسيوس بصولجانه على كتفيه ، فارتجف من الألم ، وطفرت الدموع فى عينيه ، فذهب ينهنها بعيدا وبه ما لا يوصف من الخجل . فتعالت ضحكات الجند وانكشفت الغمة التى ساورت نفوسهم أزاء تلك اللعبة التى لعبت عليهم . ثم التفت أودسيوس إلى الجموع المحتشدة ، وقال .

ـ كنا على وشك الحنث بالعهد الذى قطعناه على أنفسنا . فأى عار كنا ملاقيه فى ذلك ، وأى فشل كنا مصادفيه ، نحن الذين صبرنا حتى وسع صبرنا البقاء أمام طروادة تسع سنوات ؟ أفما كان من الخسار أن تضيع ثمرة الجهود التى بذلناها ، وثمرة هذا الوقت الطويل الذى صبرناه . لقد مضى من الوقت أكثره ، وما بقى إلا أقله ، ثم تكون طروادة مدينتنا .

عندذاك صفقت الجموع استحسانا ، وحبذت مقال أودسيوس ، وبالغت فى مدحه . ثم أمر أجمنون بأن يتناول الجيش غذاءه ، ويأخذ عدته للحرب ، ويتأهب للنزال عما قليل .

* * *

وبينما كان بريام ملك طروادة ، ومستشاره أنتينور ، وأمير يدعى تيموتيس ، وآخرون ، جلوسا فى أحد أبراج سور طروادة يشاهدون مشاهد استعداد الإغريق للقتال ، طلعت هيلين عليهم بين جواريها ، فقال بعضهم لبعض همسا :

ــ حقا مافى تقاتل الاغريق والطرواديين من أجل مثل هذا الجمال من عار ، وهو جمال خليق بآلهة الأولمب . ولكن بودنا لو عادت إلى ذويها لكيلا تسبب خرابنا بوجودها بيننا .

ولكن الملك استدعاها قائلا :

تعالى إلى جانبى يابنية ، واجلسى إلى جوارى لترى أقاربك وأصدقاءك . فما أتهمك بالتسبب فى محنتنا ، ولكنى أتهم الآلهة الذين ألبوا علينا هذه الجيوش المتحالفة .

أنبئينى يابنية باسم هذا الرجل العجيب . إن له بنية قوية وطلعة ممتازة تميزانه عن غيره ، وإن امتاز عنه الغير بالطول . ولكن لم ترقط عينى إنسانا بمثل هذا الجمال وتلك العظمة . وكأنى به ملكا أو أميراً .

فأجابت هيلين :

ـ أنني أوقرك ياأبتاه ، وأستحى منك . وبودى لو صادفت الموت يوم تبعت ولدك ، وهجرت فراش الزوجية ، وتركت أخوة وأترابا ، وابنتى الوحيدة « هرميون » .

ولكن ما كان الموت مقدوراً لى ... لهذا تستهلكنى الآن مدامعى . تسألنى عمن يكون هذا المحارب الذى استرعى انتباهك . إنه أجمنون بن أتريه ، الذى يملك فن الحكم وفن القتال معا . لقد كان أخا ـ لو صح أن أدعوه بالأخ ـ حين كنت زوجا لأخيه .

جعل الشيخ يتأمل هذا المحارب الفذ ، ثم صاح :

ـ ماأسعدك يا أتريد (إسم آخر لأجمنون) . أيها المعزز عند الأرباب والأقدار ، كم من شعوب تخضع لسلطانك !

ثم نظر إلى أوليس (إسم آخر لأودسيوس) وقال :

وأنبئينى يابنية ، من يكون هذا المحارب ؟ . إنه أقل طولا من أجمنون ، ولكن منكبيه وصدره أكثر إتساعا ، وهو يمشى بين صفوف المحاربين مشية الكبش بين نعاجه .

فأجابت هيلين :

ـ إنه ابن لايرت « أوليس » الحازم الفطن ، ملك جزيرة إساكا ذات الصخور المتوعرة . وهو صاحب رأى ودهاء .

فقال أنتينور :

ـ حقا ماتقولين ياهلين . فقد لمست ذلك بنفسى ، حين وفد هذا الرجل إلى مدينتنا بسببك ، يرافقه منلياس المقدام . لقد استضفتهما ببيتى ، ورحبت بهما ، وعرفت أخلاقهما واتساع عقلهما . وحين وقفا بين جموع الطرواديين ، استرعى منلياس الانتباه بارتفاع قامته ، ثم حين جلسا تراءت من أوليس هيئة أدعى إلى الاحترام . وحينما خطبا فى الجموع ظهر فى خطاب منلياس الإيجاز والقوة ، وظهر فى خطاب أودسيوس الإطناب ، والبلاغة ، والتأثير وقوة الإلحام . فكان السامع يراه متكلما فى صورة غير صورته صامتا : صورة لايملك معها إلا الإعجاب به .

ثم عاد بريام فتساءل :

ـ ومن ذا يكون ذلك القائد العريض المنكبين المرتفع القامة ؟

فأجابت هيلين :

ـ هذا أياس الأكبر ابن تيلامون ، حصن اليونان ، وإلى جانبه « أيدومين » ملك كريت . وأنا أعرف هذا الأخير حق المعرفة ، لأنه كثيراً ماكان ينزل بناضيفا فى منزل منلياس بأسبرطة . وأرى إلى جانبهما كثيرين غيره باستطاعتى أن أنبئك بأسمائهم . ولكنى لاأرى أخوى « كاستور » مروض الخيل و « بوليدوسيس »

المصارع . أفيكون ذلك لأنهما تخلفا عن الجيش، أم لأنهما متواريان عن العيون استحياء من الظهور بوصمة العار التى كنت سببا فيها .

ما كادت هيلين تذكر أخويها ... وتقرن باسميهما العار ، حتى التمعت فى عينيها الدموع . ولو أنها عرفت إنهما رهينا جدث بوطنها « لاكونيا » لذرفت دماً فى إثر مدامعها .

(٢٤)

وعندما اصطف الجيشان استعداداً للطعان ، تقدم الطرواديون متصايحين كأسراب الطيور ، فبلغت أصواتهم عنان السماء . على حين تقدم الإغريق صامتين كاظمين الغيظ . فاذا التحم الجيشان ، ظهر باريس فى طلعة كطلعة الآلهة على رأس رجاله ، وهو يرتدى جلد نمر ، ويتمنطق بحسامه ، ويختال عجبا بنفسه . وفيما هو يشق طريقه بين الصفوف ، شاهد محاربا مسنا ، فحاول أن ينال منه مقتلا . سوى أن منلياس شاهده فكاد يطير فرحا ، اذ علم أن الساعة قد أذنت بأن يقتص لنفسه من خاطف امرأته وغاويها ، فاندفع نحوه كما يندفع الأسد الهائج نحو غزال شارد . فما أن رآه باريس حتى ارتاع ، وطارت نفسه شعاعاً ، وولى هاربا معتصما بالصفوف الأخيرة من رجاله . فلمحه هكتور متراجعا متحاميا منازلة منلياس ، فقال له لائما معنفا :

ـ أيها التعس . . . ما من مزية أراها لك سوى جمالك . وتلك مزية لعمرى أولى بربات الحجال . أما الشجاعة والاقدام فما من سبيل لهما إلى قلبك ، وما أراك إلا جبانا ، خواراً ، خائنا ، خداعاً ، بجيداً لإغراء النساء .

ليت أمك لم تلدك ، أو ليتك مت قبل أن ترتبط بهذا الزواج الآثم ، الذى جلبت به عارنا وعارك ، وقبل تلك الساعة التى وليت فيها هاربا ، عندما وقع بصرك على عدوك ، فزدت نفسك عاراً على عار . كان يحسبك من يراك محارباً صوّالا ، لأن مظهرك ينبىء بذلك فإذا أنت الآن تعلن عن روح ضعيفة خائرة ، فأدخلت السرور بذلك فى قلوب أعدائك ، ولم يعد من عجب أن تخاف منلياس ، وأنت سارق زوجته ، وكان خليقا بأهل طروادة أن يرجموك لما أنزلت بهم من محنة .

فقال باريس :

ـ أراك محقا فى ملامتى وتعنيفى . فما أستطيع قط أن أكون على مثل شجاعتك . ولكن أتظن أنى مذنب إذ خلقت جميلا ؟ تلك هبة إلهية ، وما صنعت نفسى ، ولكن خلقنى الآلهة بهذه الصورة التى تلومنى عليها .

سوى أنى مع ذلك على استعداد لمنازلة منلياس على انفراد ،

فإذا أردت ، فمر رجالك بالتوقف عن الاقتتال ، واسع فى إبلاغ الإغريق باستعدادى هذا . فمن كانت له الغلبة من بيننا فاز بهلين والغنيمة ، وانعقد النصر لقومه مع حقن الدماء .

* * *

سر هكتور بهذا الحديث سروراً بالغاً ، ودعا الجيشين إلى عقد هدنة ، فاستجابا لدعوته رغبة فى وضع حد لهذه الحرب المهلكة .

وأقبل بريام فى مركبة يقودها صديقه ووزيره « أنتينور » للقاء أجمنون وأودسيوس لعقد الشروط . وأمر أجمنون باستحضار حمل . فأحضره الحجاب ، وصبوا خمراً فى إناء . فانتضى قائد الإغريق حسامه ، وقطع صوفا من رأس الحمل ، ثم وزعه على الحضور من قادة الجيشين . ثم رفع يديه إلى السماء متضرعا بصوت مرتفع إلى زوس كبير الآلهة ، وإلى هيلوس إله الشمس الذى يشرف على العوالم كلها ، وإلى بليتون إله الجحيم الذى يعاقب الاشرار ، وسألهم أن يكونوا شهود هذه المعاهدة ثم قال :

ــ إذا سقط منلياس بيد باريس احتفظ باريس بهلين والغنيمة ، وعاد الإغريق إلى أوطانهم فى سلام . وإذا قتل منلياس باريس ، أعادت طروادة هيلين والغنيمة ، ودفعت تعويضا مناسبا ، تذكرةً

للأعقاب . أما إذا امتنعت طروادة عن دفع هذا التعويض فلن ينصرف الهيلانيون عن محاربتها ، وإن استردوا هيلين والنفائس المسروقة .

ثم نحر أجمنون حمله ، كما نحر حملين أمر باستحضارهما بريام ، فسقطت جميعا ، وهى تختلج وتضطرب ، متصاعدة الأنفاس . ثم وزعت الخمر على الكؤوس ، وتعالت التوسلات إلى الآلهة من كلا المعسكرين ، وصعد بريام من بعد إلى عجلته ، واتجه بها إلى مرتفعات طروادة ، بعد أن قال لإتباعه « أنا لا أستطيع أن أمكث لأرى ولدى المعزز منازلا لخصم مخوف الجانب » .

وأنشأ هكتور وأودسيوس يقيسان ميدان القتال . وسحبا اقتراعا ليريا أى المحاربين عليه أن يبدأ بقذف رمحه ، فكان ذلك من نصيب باريس .

وكان باريس يرتدى عدة حربية فاخرة ، مكونة من درع يغطى صدره ، وحذاء يغطى ساقيه ، وخوذة على رأسه ، وسيف متدل على جانبه . وكذلك كان مناياس .

ولما أذنت ساعة النزال ، تقدم الخصمان إلى الساحة المقيسة بين المعسكرين ، وهما يتبادلان نظرات مروعة . ووقف أحدهما تلقاء الآخر يحرك رمحه ، والغضب وإمارات التهديد بادية عليهما .

ثم ابتدأ باريس ، فقذف رمحه ، فأصاب الرمح درع منلياس ،سوى إنه لم ينفذ خلاله وانثنى طرفه . فرفع منلياس رمحه بدوره وابتهل إلى كبير الآلهة قائلا :

ـ أى جوبتر العظيم . لقد آنت الساعة التى يجب أن يعاقب فيها الخائن الغادر ؛ فكن عونى . . . عاقبه يا رباه ، ليحذر الناس فى مؤتنف الايام الغدر بمن يأتمنهم ، ويستقبلهم فى بيته ، ويغدق عليهم من صداقته .

ثم قذف الرمح فاخترق درع باريس، ولكنه لم يصل إلى إهابه . إذ ذاك شهر منلياس حسامه ، وضرب خصمه على خوذته ضربة أراد بها أن يخترق رأسه . فأنكسر الحسام دون أن يودى بباريس، فزفر منلياس زفرة ، ثم صعّد بصره إلى السماء مستعينا بجوبتر ، وانقض على باريس ، فأمسك بخوذته ، وجعل يسحبه على الأرض ، فكاد سيرها أن يخنقه . وكان منلياس على وشك الانتصار ، لولا أن تداركت « فينوس » الأمر ، فقطعت « السير » فاستشاط غيظا وحمل عليه برمحه . عندئذ حملت أفروديت باريس بين ذراعيها ، وطارت به فى صورة سحابة ، وأوصلته إلى غرفته بقصر الملك بريام ، حيث أضجعته بين ذراعى هيلين ؛ فوجد بينهما العزاء عن نكساره . أما منلياس فقد اندفع كالوحش ، هنا وهناك ، باحثا

عن خصمه بين صفوف الطرواديين . ولو أن أحداً منهم عثر به لأسلمه إليه . فما كانت قلوبهم الا منطوية على بغضه ، لما أنزل بهم من محنة .

ونهض أجمنون أخيراً فقال :

— يا أهل طروادة ودارداليا ، الظافر منلياس ؛ لهذا أعيدوا الينا هيلين والغنيمة ، مع تعويض مناسب . فتعالى الهتاف من جانب الإغريق .

(٣٥)

اجتمع مجلس الآلهة بقصر زوس ، فقال :

— أيها الأرباب ... أترون أن نفض ما بين الإغريق وأهل طروادة من عداوة ، فيعود أجمنون ومحالفوه إلى أرجوس بسلام ، وتنجو مدينة طروادة ؛ أم نقضى بمواصلة القتال بينهما إلى أن تفتح هذه المدينة ويخسر أهلها الحرب .

فقالت هيرا :

— يا كبير الآلهة . . . . ماأحسبك تحب أن تذهب جهودى أدراج الرياح ، فقد أتعبت جوادى فى جمع الإغريق وحلفائهم ، ولقيت عنتا وتعباحتى رأيت جيوشهم تجتمع حول أسوار طروادة ؛ والآن تستفسرنا عما نريد وهو لايخفى عليك : أننى أريد أن أرى

بعينى خراب طروادة وسقوط ملكها .

فقال زوس :

ــ وأنت يامنيرفا . . . ماذا تريدين ؟

فقالت منيرفا :

ــ بودى لو رأيت جميع الطرواديين ها لكين .

فقال زوس :

هذا حسن ؛ ولكن أما تدريان أن طروادة مدينة معززة عندى ، وما رأيت من أهلها إلا طاعة لى ، وتقربا إلىّ بالقرابين والضحايا .

فقالت هيرا :

ــ الأمر أمرك إذا أردت فاستبقها واستبق أهلها ، ولكن ذلك سيسبب لى ألما كبيراً .

فقال زوس :

ــ أرأيتنى أتعرض لك فى مدينة تحبينها . ؟

فقالت هيرا :

ــ لديك ثلاث مدن أخصها بمحبتى ، وهى : أرجوس ، وإسبرطة ، ومسينا ، أن أردت فامحها من الوجود . ولكن دعنى أرى ثمرة مجهودى فيما أحب من خراب طروادة .

فقال زوس :

لك ماتشائين ، ولكن محنة هذه المدينة ستحز كثيراً فى نفسى. اذهبى يامنيرفا فاعملى على فض المهادنة بين الجيشين ، وإثارة الحرب بينهما من جديد .

(٢٦)

هبطت منيرفا حتى بلغت معسكر الطرواديين فى صورة أحد أمرائها ، وسرعان ماشقت طريقها إلى « بنداروس » رامى السهام. وكان محاطا برجاله الذين أتى بهم « أسيباس » لمعاونة طروادة . فتقدمت إليه منيرفا وقالت له :

ــ ياابن ليكاؤون ، استمع لنصحى : إنك إن أصبت منلياس بسهم من سهامك فأرديته . أصبت مجداً ، وأرضيت حلفاءك وذاعت شهرتك بينهم ، فيجزل باريس مكافأتك . فهلارميته بنبل ضارعا إلى أبولون أن يرديه .

فقال بنداروس وقد دب الحماس فى قلبه :

ــ أجل . . . . أراك مصيبا .

ثم ولى وجهه شطر معسكر اليونان باحثا عن منلياس حتى بصر به ، فوضع سهما فى قوسه ، وشد القوس ، فأنطلق السهم فأصاب منلياس فى خاصرته ، ولكن منيرفا كانت ساهرة فى الوقت نفسه

على حياة عاهل أسبرطة ، فخففت من قوة السهم أثناء انطلاقه ، وجعلت أصابته سطحية . غير أن الدم سال غزيراً حتى أفزع أجمنون عندما وقعت عليه عينه ، فقال :

— أواه يامنلياس ، ألموتك كانت هدنتنا ، تلك الهدنة التى خانها الطروادیون ؟ ولكنهم سيدفعون الثمن غاليا إن عاجلا وإن آجلا . لقد حنثوا بيمينهم وخانوا عهدهم ، لذلك سيكون عقابهم مضاعفا . سيصادفونه من الآلهة ومنا ، وسينصب على رؤوسهم ورؤوس بنيهم ونسائهم ، وستسقط أسوار طروادة ، وسيهلك بريام وشعبه .

ومع ذلك أى فجيعة أصادفها فيك إذا قضيت يامنلياس . سأعود إلى أرجوس موصوما بالعار ، موسوما بالذلة ، لأن جيوشنا ، إذا مت ، لن تفكر إلا فى العودة إلى الوطن ، تاركين وراءهم هيلين لبريام وقومه ، وتاركينك لجدث قريب من الأعداء لعلهم أن يعتلوه قائلين : هكذا كان نصر أجمنون ، وعبثا ماقاد إلينا من جند وخيل .

فقال منلياس :

— جنب قلبك هذه الأوهام ، وإلا دب الرعب بها فى نفوس جنودك ، فأنى أتفاءل خيراً ، وأرجو ألا تكون إصابتى قاتلة :

فقال أجمنون :

ـــ استجابت الآلهة إلى رجائك .

ثم بعث أجمنون فى طلب « ماشاؤون » الذى تعلم الحكمة من شيرون [١] ، ليطبب منلياس . فخف إليه ، وانتزع السهم ، وامتص موضعه ، ووضع على الجرح بلسما شافيا .

(٢٧)

تحفز الطرواديون للقتال وكذلك الإغريق ؛ وأخذ أجمنون يمر على الفرق المختلفة وقادتها ، حاثا على الاستعداد ، مستنهضا الهمم .

فذهب إلى معسكر أيدومين ملك كريت ، فوجده متأهبا ، متحفزا . وعطف إلى أياس الأكبر بن تيلامون وأياس الأصغر بن أواليه ، فألفاهما مستعدين ، ومضى إلى نستور العجوز ، ملك بليوس ، فوجد روحه المعنوية لا تضارعها روح الشباب . وذهب إلى منستوس ملك أثينا ، وأودسيوس ملك إيساكا ، فاستشف أنهما غير عالمين بانتهاء الهدنة ، وبما كان من غدر الطرواديين ؛ فأنهى إليهما الخبر ،

---

(١) حيوان خرافى ، له جسم جواد ورأس إنسان ، وقد عرف بالحكمة وسعة العقل والمهارة الحربية ، وهو الذى يعزى إليه تنشئة فئة كبيرة من أبطال اليونان .

وشخص إلى دايوميدوستينيلاس فطلب منهما أن يكونا على ما كان عليه آباؤهما من قوة وشجاعة . فأخبراه إنهما لا يقلان فى ذلك عن الآباء وإنهما عما قريب سيظهران من الصولة مايستثير إعجابه .

وما لبث أن تلاحم الجيشان ، وحمى وطيس القتال . فأخذ المحارب ينازل المحارب ، والقائد يصاول القائد . وأعمل الإغريق السيف فى رقاب الطروادبين ، وقتلوا منهم خلقاً كثيرا ، وأظهر ديوميد من ضروب البطولة ما أثار إعجاب رجاله وقتل كثيرا من الأبطال ، كما قتل أميرين من أبناء بريام . فعزّ ذلك على إينياس بن أنشيز ، البطل الطروادى . وهو كآخيل ، أبوه من البشر وأمه «فينوس» إلاهة الحب والجمال ، فنادى بنداروس رامى السهام وقال له :

ــ أين قوسك وسهامك يا بنداروس ؟... وأين مهارتك التى لا ينازعك فيها منازع فى شد القوس . . . أرم رمية تقضى على هذا المحارب المخوف .

فقال بنداروس :

ــ يخيل إلىّ أن هذا المحارب ليس من البشر ، فقد رميته رمية ظننت معها أننى مودٍ به ، فما أصبته ، وما زدت على استثارة غضبه ونقمته ، فصب جامهما على رؤوس مواطنى .

فقال له إينياس :

ـ هلم فامتط مركبتى الحربية ، واتخذ من جيادها مكان القائد ، ودعنى أنفرغ لقتاله بالرمح .

فركب بنداروس المركبة ، وأمسك باللجام ، وقادها بيدين خبيرتين إلى حيث يوجد «ديوميد» . فرآهما « ستينيلاس » مندفعين نحو صديقه فقال له :

ـ يا ابن تيديه ، أيها المعزز إلى قلبى ، أرى محاربين تحفزهما نحوك قوة قاهرة : أحدهما خبير برمى السهام ، والآخر ابن أنشيز من الإلاهة فينوس. هلم فتراجع إلى الوراء ، واحتم بصفوف رجالك.

فصوب اليه ديوميد نظرة مروعة وقال له :

ـ لا تكلمنى عن الهرب ، فما أنا بالذى يتراجع أو يرتاع ، وما خارت قواى بعد .

وفيما هما فى هذا الحديث ، إذا بالبطلين الطروادين يصلان على مركبتهما . فقال بنداروس بن ليكاؤون موجها خطابه إلى ديوميد :

ـ أيها المحارب الذى لا يقهر ، يا ابن تيديه ، خذها ضربة صائبة من رمحى هذه المرة .

ثم قذفه برمحه فاخترق درعه فصاح ابن ليكاؤون قائلا :

ـــ ها قد أصابتك فى خاصرتك ضربة قاتلة . لقد كلفتنى أخيرا بالمجد :

فقال ديوميد :

ـــ خاب فألك ، فما بلغت ضربتك إهابى .

ثم رمى رمحه ، فأصاب بنداروس أسفل عينيه ، وشج رأسه ، واستأصل لسانه ، واخترق ذقنه عند رقبته . فسقط من فوق عجلته صريعا لا ينبث بكلمة . فترجل إينياس عن مركبته ليمنع الإغريق من سحب جثمان صديقه ، وشهر فى وجوههم رمحه ، وبدا كالأسد الهائج يهدد كل من تحدثه نفسه بالاقتراب من الجثمان .

فتناول ديوميد حجرا لا يستطيع أن يحمله رجلان ، وقذف به البطل الطروادى عند أسفل خاصرته ، فانكسرت عظمتها ، وسقط إينياس مضرجا بدمائه ، غائبا عن وعيه . وأوشك أن يفقد حياته لولا أن تداركت الإلاهة « فينوس » الأمر ـــ وهى أمه ـــ فحملته بين ذراعيها الجميلتين البضتين ، وطارت به إلى خارج الحلبة . ولكن ديوميد رآها وهى تحمله ، إذ مكنته من ذلك جينون كبيرة الآلهة ، وأغرته بمهاجمتها ، لأنها إلاهة ضعيفة لامزية لها إلا جمالها ، وليس لها خبرة متيرفا وبللون إلاهة الحرب فى الشؤون الحربية .

حينذاك رماها برمحه فأصاب يدها بجرح خفيف ، ونفذ فى

نقابها الإلهى فلامس بشرتها الوردية . وفى الحال سال دمها بخاراً نقياً ، ذكياً . فدفعت فينوس صيحة عالية ، وسقط ولدها من بين ذراعيها . ولكن أبولون « إله النور » أسرع فحمله ، وأدرجه فى سحابة كثيفة ليجنبه سهام الهيلانيين والموت .

فقال ديوميد لفينوس بصوت جهورى :

ـ يا ابنة جوبتر ، أتركى الحرب ومخاطرها . أفما يكفيك خدع الغريرات من بناتنا ؟ إنك إن ظهرت مرة أخرى فى حلبات مارس (إلاه الحرب) فستتعلمين كيف ترهبين الحروب .

سمعت فينوس هذا القول فانسحبت ، ومضت محزونة معذبة .

وجاءتها إريس «رسولة الآلهة» فأخذت بيدها ، وأخرجتها من حلبة القتال ، وهى توشك أن تلفظ أنفاسها من الألم . فصادفت فى طريقها أخاها مارس ، جالساً عند جناح الجيش الأيسر . وثمة سحابة كانت تواريه ، وتوارى جياده ذات الضفائر الذهبية ومركبته . فجثت فينوس عند قدميه ، وسألته ملحة أن يعيرها جياده ومركبته لتصل بها إلى الأولمب . فلم يضن عليها بما طلبت . ثم ركبت العربة ، وصعدت إريس إلى جوارها ، وتولت القيادة . وما لبثت المركبة أن بلغت إلى مستقر الآلهة . وأرادت مينرفا وجينون أن تثيرا جوبتر ضد فينوس ، فقالتا له هازئتين ، ساخرتين :

ـ يا أبا الآلهة ..حاولت فينوس أن تغرى إحدى اليونانيات باللحاق بطروادى ـ وهى الآن مغرمة بطروادة وأهلها ـ فجرحت يدها الناعمة بدبوس من دبابيس زينتها ، وهى آخذة فى محاولتها .

فضحك زوس عند ما سمع ذلك القول ، واستدعى فينوس الشقراء وقال لها :

ـ يا بنيـــة . . . ليست الحروب من عملك ، فدعيها لمنيرفا ولمارس ، وحسبك الحب وشواغله .

(٢٨)

لم يستطع أحد من أهل طروادة أن يقلل من خطورة ديوميد فى هذه الموقعة وقد أضحى ، بعد مطاردته لفينوس ، أشد هياجا من أسـد . وأخذ يورد أعداءه موارد الحتف . فطلب العراف هيليناس من أخيه هكتور أن يذهب إلى طراودة ، ويكلف بناتها ونساءها تقديم الضحايا والقرابين إلى «مينرفا» بمعبدها ، عسى أن تقلل من نقمتها على الطرواديين ، وتأخذ بيدهم فى القتال ، وتدرأ عنهم سطوة ديوميد وثورته ، وتكف عنهم شره . فانطلق هكتور حتى أتى شجرة تين قائمة عند أحد أبواب طروادة ، فخرجت النساء والبنات لمقابلته ، راغبات فى أن يسمعن أخبار بعولتهن وآبائهن .

فطلب إليهن أن يتضرعن إلى الآلهة ، ويسألنها النصر . ثم مضى إلى داخل المدينة . فجاءته أمه «هيكوبا» ومعها وعاء مملوء خمرا وسألته احتساء القليل منه ، فأبى ، وطلب إليها أن تمضى بجواريها ، وأتباعها إلى معبد «بلاس أثينا» (اسم آخر لمنيرفا) لتضع شالا فاخرا على ركبتى الإلاهة ، عسى أن تخفف من نقمتها .

ثم ذهب إلى بيت أخيه باريس ، وسأله الانصراف عن مداعبة هيلين إلى الحرب ، فاستجاب لطلبه ، وأخذ فى ارتداء درعه ورمحه .

وانصرف هكتور إلى بيته لمشاهدة زوجته أندروماك وولده «أستيانا كس» ، فعلم إنها مضت به إلى سور طروادة للأشراف على القتال ، والاطمئنان على زوجها . فخف إليها ، وأخذ يبتسم وهو يحملق فى ولده بين ذراعى مربيته . فقالت له أندروماك مستعبرة باكية وهى تعتمد على ذراعه :

ــ أى زوجى . إن قلبك الكبير سيقودك إلى الهلاك . وما بك من شفقة على ولدك أو علىّ . وعما قليل أصير أرملة حين ينقض عليك جميع الاغريق ويذبحونك . ولكنى أوثر أن يكون موتى قبل موتك ، وإلا امتلأت حياتى بالعذاب والأسى والأسف .

ومالى من أب أو أم أو أخ يخففون عنى ، أو يكفكفون دمعى ، وقد أهلكهم آخيل جميعا عند غزو « ثيبا » .

أشعر قلبك أذن بعض الرحمه بى . وابق هنا ، ولا تيتم هذا الطفل ، واجمع الجيش عند شجرة التين هذه ، حيث يسهل على العدو ارتقاء أسوار طروادة ، واجعل همه الدفاع عن الثغرة ؛ فما عداها محال على الإغريق أن يصلوا إليه . وما من حاجة بك بعد ذلك إلى حلبة القتال .

فقال هكتور :

— إننى أشاطرك مخاوفك ، يازوجتى العزيزة . . . ولكنى أخاف ملامة الطرواديين والطروادیات ، إذا تجنبت القتال كالجبناء . هذا إلى ماتقتضيه شجاعتى ، وقد عودت اقتحام المخاطر ، إلى مايقتضيه مجدى ومجد أبى .

أعرف مع ذلك أن طروادة مهددة ، وأن ملك أبى معرض للضياع . وما يؤلمنى ما أعرف من ذلك بقدر مايؤلمنى مصيرك حينذاك .

قال هكتور هذا القول ، ثم اقترب من ولده ، وبسط إليه ذراعيه ؛ ففزع الطفل بين ذرعى مربيته من بريق السلاح وصليله وأخفى وجهه فى صدرها ، ودفع صيحة تنبىء بالخوف . فابتسم أبواه ، ونزع هكتور خوذته الحربية ، ووضعها على الأرض ، ثم لثم ولده بحنان ، وضمه ، وشمه ، وطفق يهدهده بين يديه ، ثم أبتهل إلى الآلهة قائلا :

ـ أى جوبتر . . . وأنتم ياآلهة الأولمب . . .اجعلوني وولدى جديرين بالتعظيم بين أهل طروادة ، وهيئوا لولدى أن تحدوه جرأة كجرأتى ، وقوة كقوتى ، حتى يقال يوما إذا عاد من القتال مزوداً بالغنائم ، إنه أشد بسالة من أبيه . إذ ذاك تفرح به أمه ، وتطيب نفسا بلقائه .

ثم وضع ولده بين ذراعى أمه المعززة التى وضعته على صدرها المعطر ، ورمقته بنظرة باسمة باكية . ثم ودعها هكتور ومضى إلى القتال . وعادت هى إلى دارها ، والدموع منهلة من مآقيها ، ووراءها وصيفاتها باكيات منتحبات .

(٢٩)

التقى هكتور وباريس بحلبة القتال . فآزرا فى مقارعة أبطال الإغريق . وأردى كل منهما محاربا . واشتدت المعمعة حتى أودى كثيرون من كلا الفريقين . فلما رأت منيرفا هلاك كثيرين من اليونانيين ، وأن كفة الطرواديين توشك أن تكون الراجحة ، هبطت من الأولمب إلى أسوار طروادة . وكان أبولون مناصر الطرواديين واقفا على شرف ينظر إلى المعركة الدائرة . فلما شاهد منيرفا خف إليها وقال :

ـ يا ابنة جوبتر . . . لماذا أسرعت من قمة الأولمب إلى هذا

المكان ، وبك من الغضب مالا تستطيعين إخفاءه ؟ وماهذه النار التى تتأجج بين جوانحك ؟ أجئت لمؤازرة الإغريق وأنت لا تطيقين أن يعقد النصر لطروادة ؟ .. إذا كان بك حوف من هذا ، فهلى نوقف القتال مؤقتا .

فقالت مينرفا :

ـ تلك رغبتى ، ولهذا هبطت . ولكن أى وسيلة نصل بها إلى ذلك .

فقال أبولون :

ـ لنحرض هكتور على دعوة الإغريق لنزال منفرد ، ونحرض هؤلاء على الإصاخة لدعواه .

وافقت مينرفا على ذلك ، وأوحى الإلاهان إلى هيليناس عراف طروادة بما اتفقا عليه . فاقترب من أخيه هكتور ، وأنهى إليه الإرادة الإلهية . فوقف هكتور بين الجيشين ، ونادى قائلا :

ـ أيها الطرواديون ... أيها الإغريق ... أعيرونى السمع :

إن الآلهة غير راضية عن انتهاك حرمة هدنتنا التى سلف أن تعاهدنا عليها ، وأرى الآن أن أعرض عليكم إيقاف القتال ، على أن يتصدى أحد أبطالكم لمنازلتى ، فإذا صرعنى كانت له عدتى وسلاحى ، وأعاد جثمانى إلى آلى لمواراته التراب . وإذا صرعته ،

علقت عدته بمعبد أبولون ، وخولتكم دفنه على ساحل الهلسبونت عسى أن يقال يوما ، إذا مر بقبره عابر سبيل ، « هنا قبر محارب قتله هكتور إذ نازله » . وبهذا تستطير شهرتى وتبقى إلى الأبد .

ماأن سمع الإغريق هذا المقال ، حتى وجموا ، وسادهم الصمت. فما كان فيهم من يجرؤ على منازلة هكتور على انفراد ، وهو بطل مغوار صوّال ، ولكن منلياس عرض أن ينازله ، فأبى أجمنون ذلك عليه . مخافة ألا يفوز أخوه على هذا المقاتل الفذ وليس له من ضريب إلا آخيل .

فلما طال الصمت نهض نستور العجوز فقال :

ــ ياأسفى على هيلاس . . . أهكذا خلت من الأبطال ؟ أهكذا يكون عارنا ؟ . أما بينكم من تواتيه الشجاعة لمنازلة هكتور؟ آه لو كنت شابا ، إذن لأريتكم كيف أتصدى لمقارعة هذا المتحدى .

حفز هذا القول تسعة مقاتلين من قادة اليونان على لقاء البطل الطروادى ، وهم : أجمنون ، وديوميد ، وأياس الأكبر ، وأياس الأصغر ، وأيدومين ، وصديقه مريون ، وأوريفيل ، وتواس ، وأودسيوس .

وألح كل منهم فى أن يكون منازله . فرأى أجمنون أن يجرى

بينهم اقتراعا ، فوقع على أياس الأكبر، فتهلل وجهه بالبشر وخاطب هكتور قائلا :

ـ لاتحسب ياهكتور أن أبطال اليونان ، بعد آخيل ، قد نضب معينهم . فعما قليل تعرف قدر أبطالنا .

فقال هكتور :

ـ أتحسبنى طفلا او امرأة فيخفينى قولك ... إننى أعرف كيف أتوقاك بدرعى ، مترجلا كنت أم راكبا . ولا البث ان أذيقك طعم طعناتى وأرديك .

ثم قذف هكتور أياس برمحه فلم ينفذ فى درعه، فقذفه أياس فأخترق درعه . سوى أن الرمح لم ينفذ إلى جسمه . ثم استل كل منهما حسامه وتبادلا الطعنات ، فلم ينل هكتور من خصمه ، ونال خصمه منه بأن أصابه بجرح فى عنقه . ولكن هكتور تناول ضخرة كبيرة رمى بها أياس . وحذا أياس حذوه ، فسقط هكتور على ركبتيه فبادر إليه «أبولون» فأنهضه . وأنشأ البطلان يتحاوران ويتصاولان حتى أجنهما الليل . فنادى منادى الإغريق كما نادى منادى الطرواديين:

ـ كفا عن القتال ... فكلاكما معزز عند «جوبتر» ، وكلاكما بطل مغوار ... ولكن الليل أرخى سدوله ، وللّيل طاعة مفروضة.

فقال أياس :

ــ أيها المناديان .. هذا مقال توجهانه إلى هكتور، فهو الداعى إلى القتال ، وهو الذى يسال إيقافه وما على إلا الطاعة .

فقال هكتور :

ــ أى إياس ... إنك محارب شجاع .. دعنا الآن نضع حداً لقتالنا ، فالظلام حقا قد عم الكون ، وليذهب كلانا إلى رهطه ليدخل المسرة إلى قلوب محبيه ، ولنتلاق فى مرة أخرى إلى أن يعقد « زوس » النصر لأحدنا .

ودعنا الآن نرحل صديقين ، بعد تبادل الهدايا ، ليقال « إنا تصاولنا ببطولة فى قتال منفرد وافترقنا صديقين » .

فأيده أياس وأعطاه منطقته وأخذ من هكتور حسامه ثم افترقا

* * *

وأقام أجمنون فى هذه الليلة حفلة ساهرة لتكريم البطل اليونانى ، لما أبدى فى القتال من ضروب الخفة والمهارة .

ــ ٣٠ ــ

لم ينس « زوس » وعده « لتيتيس » ، فعقد العزم على تهيئة أسباب القوة لجيش طروادة ، حتى ترجح كفته فى القتال على جيش أجمنون ، ومن ثم يقر أجمنون بذنبه ويندم على ما اقترف فى حق آخيل .

ورأى زوس أنه لو ترك الآلهة وشأنهم ، فلن يتاتى لأهل طروادة هذا الفوز الموقوت . لأن فريق الآلهة المشايع لليونان أكثر قوة وأعز نفراً من فريق الآلهة المشايع لطروادة . فأمر زوس بانعقاد مجلس الأرباب على قمة الأولمب ثم تكلم فيهم قائلا :

ـ يا آلهة الأولمب . . أعيرونى سمعا واعيا فأنبئكم بإرادتى السامية . وما أحب أن أرى أحدكم ، إلها كان أم إلاهة ، ضاربا عرض الأفق بأوامرى . فتقبلوها وإلا استطعت تحقيقها برغمكم . فأيكم يغادر السماء لمساعدة الطرواديين أو الهيلانيين لن يعود إلى السماء إلا مثخنا بالجراح ، ملطخا بالعار . ومن ثم فسأقصيه إلى أعماق ترتار (الجحيم) . ولتعلموا الآن إن أحدكم مهما أوتى من قوة ، فما هو ببالغ قوتى وقدرتى .

* * *

وجم الآلهة عند هذا الحديث الشديد اللهجة ، وصمتوا طويلا ؛ إلا أن منيرفا قطعت الصمت قائلة :

ـ يا أبتاه ، يا سيد الأرباب والبشر ، نحن على علم بقدرتك ، ومع ذلك فإنا محزونون لمحنة هذا الشعب الباسل ، الشعب اليونانى ، الذى أوشك على الانكسار . غير إنا لن نعاونه مادامت تلك

إرادتك . ولكن أما تخولنا أن نسدى إليه النصح لئلا تجهز عليه نقمتك ؟ . .

فقال زوس :

ـ اطمئنى يا ابنتى ، لن يكون غضبى على هذا الشعب إلا موقوتا . ولسوف أكون لك على الدوام أبا باراً ، رحيما ، فأرضيك فى الوقت المناسب .

* * *

انفض المجلس بعد هذا الحديث ، وقام زوس فأعد مركبته بجيادها الطائرة ، ذات الأعراف الذهبية ، واعتلى مقعد قيادتها ، ثم قادها بنفسه بين الكواكب والارض نحو قمة جبل إدا . وهناك أوقف مركبته ، وأحاطها بسحابة كثيفة لئلا تقع عليها عيون البشر ، وجلس يصوب أنظاره إلى أسوار طروادة وإلى سفن الإغريق .

— ٣١ —

فتحت أبواب طروادة ، وانطلق منها الجيش فى حماسة واندفاع لملاقاة جيش اليونان . . . واشتبك الفريقان بالسهل فى قتال شديد وأخذت تتعالى صيحات الظفر ، وتختلط بحشرجة المحتضرين من الجرحى ، وسال الدم متدفقا ، كما يتدفق الماء من العيون . ثم مالبث زوس أن أرعد وبرق على مرتفعات « إدا » ، وأرسل على الاغريق صواعقه ، فدب الفزع فى قلوبهم ، وتعرضت حياتهم للمخاطر حين

حمل عليهم الطرواديون حملة واحدة بقيادة هكتور . فولوا الإدبار ولم يستطع شجعانهم كأوليس ، وأيدومين ، وأياس الثبات فى وجه تلك القوة المتدفقة . وأخذ هكتور يستحث جياده ، ويخاطبها بأسمائها خطاب الظافر . فاستشاطت جينون كبيرة الآلهة غضبا ، ولكن لم يكن بوسعها أن تبذل شيئا من المساعدة إلى الإغريق مخافة أن يصب جوبتر غضبه على رأسها ، فرأت أن تغرى بذلك نبتون إله البحر فقالت له :

ـ أنت يا من تهز الارض حتى أغوارها ، يا إله البحر القادر أفما تأخذك الشفقة بهذا الشعب المسكين الذى طالما غمر معابدك بالضحايا والقرابين ؟ . أما تحب نصرته ؟ . هلم ندفعه إلى النصر دون خوف من بروق جوبتر ورعوده .

فقال نبتيون :

ـ أى جينون، بأى جرأة تتكلمين ؟. أبستطاعتى أن أحارب أخى جوبتر ، وأقاوم إرادته، وهو أعزنا جانبا ، وأشدنا سلطانا ؟

ـ ؟ ؟ ؟

وهكذا لم تفلح جينون فيما أرادت ، واستمر الجيش الظافر فى تقدمه ، والإغريق فى تراجعهم . وحاول قادتهم الثبات وأفلح أجمنون ، وديوميد ، وأودسيوس فى قتل كثيرين من أهل طروادة

ولكن القتال أعجزهم فى آخر الأمر ، وانسحبوا من حلبته جرحى. وكان لسهام باريس أثر كبير فى ذلك ، إذ أصاب ديوميد بسهم ، وأصاب ماشاؤون طبيب اليونان بآخر . . وأوشك هكتور أن يودى بحياة نستور ، لولا أن تداركه بعض الأبطال واختطفه على عربته ، ونجا به من وجه مطارده . وأخذ هكتور يوغل فى مطاردة أعدائه حتى اضطرهم إلى الاحتماء بالسفن . ولكن حلبة القتال لم تكن قد خلت من كل أبطال الإغريق ، إذ بقى بها بطلان مغواران ، هما : أياس وأيدومين ، واستطاعا أن يثبتا لهكتور بعض الوقت ، ولكنهما اضطرا فى النهاية إلى التراجع. وكان آخيل على سطح أحد سفائنه ، فى منعزله ، يراقب القتال ، فشاهد أبطال الإغريق يتخلفون عن القتال واحداً بعد واحد ، ثم أخذ جيشهم يتقهقر بانتظام فقال لصديقه بتروكل :

ــ لايلبث الإغريق أن يجيئونى متضرعين ، جائين . فأنى أرى حاجتهم تشتد إلىّ . . ولكن أسرع لترى من يكون هذا الجريح الذى أحضره نستور على عربته ... يلوح لى أنه ماشاؤون الطبيب .

فمضى بتروكل إلى خباء نستور ، فوجد إلى جانبه ماشاؤون جريحا ، فهمّ بأن يعود أدراجه بعد أن تحقق منه ، ولكن نستور قال له :

ــ أيهمّ آخيل أمرنا ؟ . . أعلم مادهانا ؟ . . لقد جرح ديوميد ،

وأودسيوس ، وأجمنون . وكذلك ماشاؤون على ما ترى . ليتنى كنت فتيا ، أذن لزدت عن قومى شراً مستطيرا .

ولكن هل لك فى خير يا بتروكل ؟ ... أجل ، إذا أردت أن تسدى يداً إلى قومك فى محنتهم ، فاذهب واطلب من آخيل أن يعيرك سلاحه ، وادخل القتال على رأس رجاله ، عسى أن يدب الرعب فى قلوب الطرواديين ، إذا رأوك فحسبوك إياه . فتنجو بذلك من هزيمة منكرة ، لأنهم لن يلبثوا أن يولوا الأدبار .

فقال بتروكل :

ــ حسنا ... ان آلو جهدا فى إقناع آخيل بذلك .

ثم مضى إلى آخيل ، وصادف فى طريقه « أوروفيل » جريحا ، وهو صديق يعزه . كما شاهد عموداً من الدخان صاعدا من سفن « بروتيسيلوس » ، فأغتم غما شديداً ، وعز عليه أن يحرق هكتور سفن الإغريق .

وحينما عاد إلى آخيل ألحّ فى العودة إلى القتال . ولكن ابن بليوس رفض أن يعين قومه ، لأنه كان لا يزال يذكر إهانة أجمنون . وكان على استعداد للدفاع عن سفائنه ، إذا حدث هكتور نفسه بالاعتداء عليها . ولكنه سمح لبتروكل بمعاونة الإغريق ، وزوده بسلاحه ورجاله ، وسأله أن يقتصر دفاعه على السفن ، ورد الطرواديين على أعقابهم . وكان هكتور فى هذه الأثناء قد بلغ ذروة انتصاره ،

واقترب من سفن « بروتيسيلوس » ، وأشعل فيها النار بعد دفاع مجيد من أياس الذى ظل يدافع عنها حتى خارت قواه ، وتلاشت أمام هجمات الطرواديين .

وفى هذه الساعة التى بلغ فيها ضعف الإغريق أوجه ، جاءهم بتروكل يقود المرميديين ، أهل تساليا رجال آخيل الأشداء . وخاض المعركة ، وأظهر من ضروب الشجاعة ما يتعذر وصفه ، وقتل كثيرين من زعماء الطرواديين ، وحلفائهم الليسيين الذين جاءوا إلى الحرب يقودهم ساربيدون ، وصد الظافر عن السفن المحترقة . فراع ساربيدون ، وهو ابن زوس وأمه من البشر ، ما فعل بتروكل بقومه . فترجل عن مركبته ، وأخذ يحث رجاله . . فرآه بتروكل فهاجمه مهاجمة عنيفة ثبت لها ساربيدون . وأخذا يتقاتلان ، وهما يتصايحان ، كما تتقاتل النسور بأعالى الجبال .

وكان جوبتر ينظر إليهما ، وإلى جانبه « جينون » ، فقال لها :

ها قد أذنت ساعة موت ولدى ، وإننى ليحزننى ذلك وأحدث نفسى بأن أحمله من ساحة الحرب إلى وطنه ليسيا . ولكن الأقدار تقضى بموته .

فقالت له جينون :

ـ إنك إن حاولت إنقاذه ، فسيكثر اللغط بين بقية الآلهة ،

وسيقولون أن جوبتر يميز نفسه علينا . فما بالنا نترك أولادنا من البشر يموتون بساحات القتال ؟ ولماذا لا ننقذهم من الموت على غرارة ؟

فقال جوبتر :

— أى جينون . . إن أبا الأرباب والبشر لا يعترض حكم الأقدار . . . سأترك ولدى للموت . . . !

ثم صبغ جوبتر آفاق السماء بلون الشفق ، معلنا بذلك حزنه على ولده الذى لا يلبث بتروكل أن يرديه .

* * *

التقى المحاربان ، فألقى سار بيدون قناته ، فأصاب بيداس جواد آخيل ، سوى أن قائد المركبة أسرع ففصل الجواد عنها . وبينما كان سار بيدون يحاول أن يضرب ضربة ثانية ، أصابه بتروكل برمحه فى أسفل قلبه إصابة مميتة . فسقط سار بيدون على الأرض صائحا طالباً إلى رفيقه جلوكاس ألا يدع جثمانه للإغريق ؛ ووثب بتروكل فأنتزع الرمح من الجثة . وكان جلوكاس قد سمع نداء رفيقه ، فحاول أن يمنع الأعداء من أخذه ، ولكن سهما أصابه فجرحه ، وكاد يعجزه عما كان بسبيله ، فتضرع إلى أبولون قائلا :

— فى أى مكان كنت يا إله النور استجب دعوتى . لقد تمزقت يدى ، وأثخنت جراحى ، وأكاد أفقد دمى جميعه . ومع هذا ،

أجدنى تلقاء واجب إنقاذ جثة صديق ساربيدون بن جوبتر ، هذا الإله الغافل عن ولده . . إشف جراحى يا إله النور وأعنى فيما أنا ماض فيه .

هكذا كانت توسلاته إلى أبولون ، فما وسعه إلا الاستجابة له ، إرعاء لزوس ، فبدد ألمه ، وشفى كلومه . فسرجلوكاس واستنجد بالليسيين، ثم بهكتور ، ثم بغيره من قادة طروادة، وأهاب بهم ألا يدعوا جثة صديقه للهيلانيين ، لكيلا يتركوها طعمة للكلاب وجوارح الطير .

فأستحضر بتروكل ، أياس ومريون إلى جانبه لمؤازرته، وابتدأت معركة حامية الوطيس حول الجثمان ، بينما كان زوس ، على قمة الأولمب ، يشرف على هذه المعركة ، محزونا لمقتل ولده ، ومبيتاً الشر لقاتله بتروكل . إلا أنه مع ذلك أراد إمهاله ، فمكنه من رد الطرواديين، ولكنه لم يغفل عن ولده فى الوقت ذاته،فقال لأبولون:

ـ أى ولدى ڤوباس (اسم آخر لأبولون). أسرع فاستخلص ولدى ساربيدون من بين المحاربين ، وطهر جثمانه فى النهر ، ثم طيبه بالعطور، وأدرجه فى أثواب إلهية وكله إلى النوم والموت، عسى أن يحملاه سريعا إلى بلده ليسيا فيقوم أخوته وأصدقاؤه بدفنه ويشيدون له قبراً .

فقال : سمعاً وطاعه .

ثم أئتمر بأمر كبيره .

ومضى بتروكل فى تقدمه ظافراً ، لايستطيع أحد صده . وأوشك أن يفتتح طروادة فى هذا اليوم، لولا أن أوقفه أبولون ، وحال بينه وبين ذلك أكثرمن مرة ، وهومع ذلك لايرتدع، ويجاهد فى تخطى الأسوار المنيعة ، حتى قال هذا الإله فى آخر الأمر .

ـ إلى الوراء يا بتروكل . فما قدر لطروادة أن تفتح على يديك، ولا على يدى آخيل نفسه ، وهو يفوقك قوة واقتداراً ، ويعلوك مهارة وصولة .

وكان هكتور فى هذه الأثناء ، واقفاً إلى جوار مركبته عند أبواب طروادة متردداً حائراً بين أن يواصل القتال أو أن يأمر رجاله بالاحتماء وراء الأسوار، فتقدم منه أبولون فى صورة صديق من أصدقائه واستحثه على مهاجمة الإغريق مرة أخرى قائلا له :

ـ ليتنى كنت قوياً مثلك ، إذن لما تركت هذه الفرصة السانحة تفر من بين يدى . . هاأنت ذا ترى بتروكل أمامك وبوسعك أن تردبه إذا حاولت . ولعل أبولون أن يساعدك :

قال ذلك ثم انسل فى زحام القتال . وما سمع هكتور ذلك حتى أسرع إلى بتروكل على مركبته ، فتصدى له هذا ، وقذف سائقه

بصخرة كبيرة ، أسقطته على الأرض وقتلته ، وتقدم لتجريد جثته من سلاحها ودرعها ، فترجل إليه هكتور وطفقا يتصاولان ، ويتغالبان إلى أن هبط إليهما أبولون ، وضرب بتروكل بقبضته ضربة أذهلته . إذ ذاك انتهز طروادى يدعى إيفورب هذه الفرصة ، وطعنه بالرمح طعنة نفذت من ظهره ، فانقض عليه هكتور وأجهز عليه ، ثم قال مفاخراً :

ـ هكذا خلت افتتاح طروادة سهلا ميسوراً . وما فكرت قط فى مقدرتى على صدك ، والحيلولة دون نجاحك . هاقد أذقتك كأس الحين ، وما أفادتك عدة آخيل وسلاحه شيئاً . . ولا أغنى عنك صديقك المحب لك الذى آثر أن ينزوى ويدفعك إلى القتال .

فقال بتروكل كالمتبنىء ، وهو يعانى سكرات الموت :

ـ لك أن تفخر ياهكتور والفضل لأبولون الذى أذهلنى عن نفسى ، ولهذا الطروادى الذى أصمانى بسلاحه ، ميسراً لك أن تجدنى فريسة ، سهلة سائغة . على أن آخيل لايلبث أن يأخذ بثأرى ويذبحك ذبح الشاة عما قليل . ثم لفظ بتروكل أنفاسه . وذهبت روحه إلى عالم الموتى . وكاد هكتور أن يضع يده على مركبة آخيل التى حارب عليها بتروكل . ولكن « أتومو دون » سائقه أفلت بها ، وولى الإدبار . وهنا حاول الطرواديون الاستيلاء على جثمان بتروكل ،

ولكن منلياس حال دون ذلك ، ووقف كالأسد يحامى عنها ، ويهدد كل من تحدثه نفسه بالاقتراب منها ، فتقدم منه إيفورب وقال له :

ـ إبتعد عن الجثمان ، أى منلياس ، وإلا أذقتك الردى . ودعنى وأنا ، أول طاعن لبتروكل ، أجنى ثمرة ما صنعت يداى ، فآخذ سلاحه ، وأصيب به مجداً فى قومى .

فقال له منلياس :

ـ إياك والاقتراب منها ، ياإيفورب ، وإلا ألحقتك بأخيك الذى قتلته من قبل ، وكان يباهينى بقوته ، ويرمينى بالضعف .

تذكر إيفورب مقتل أخيه ، فرأى أن الفرصة سانحة للأخذ بثأره ، وقال فى نفسه لو قتلت منلياس ، وقطعت رأسه ، وحملتها إلى أبوى لكان فى ذلك عزاء لهما عن موت أخى . ثم رمى منلياس فى الحال برمحه ، فانثنى الرمح ، ولم ينفذ فى درعه . وهم بأن يعيد الكرة حين عاجله منلياس بضربة قاضية ، وعراه من عدته وسلاحه.

وما استطاع طروادى ، بعد ذلك ، أن يقترب منه ، لأنه كان كأسد هائج . ولكن أبولون حرض هكتور على جمع البارزين من رجاله ومهاجمته لإنقاذ جثة « إيفورب » من لين براثنه . فأوشك منلياس أن يعجز عن الاحتفاظ بجثة بتروكل ، لولا أن استعان أياس الأكبر بن تيلامون غير أن هكتور استطاع أن يستولى

على سلاح بتروكل ، وهو سلاح آخيل ، وكان بسبيل جره حين منعه أياس من ذلك . فتقهقر هكتور إلى الوراء ، واهتبل فرصة خلع فيها سلاحه ، وارتدى سلاح آخيل الذى غنمه من بتروكل ، وهو السلاح الذى أهداه الآلهة لأبيه يوم عرسه . ثم خف هكتور إلى القتال من جديد . واستعر القتال حول جثمان بتروكل ، وكل من الفريقين يمنى نفسه بالفوز به .

* * *

وكان آخيل مشرفا على مناظر القتال من بعد ، فرأى الإغريق يتراجعون إلى معسكرهم فتوجس شراً ، وقال فى نفسه لقد أوصيت صديقى بتروكل بأن يقصر مجهوده على الدفاع عن السفن ، وأن لايغامر بمنازلة هكتور . ترى هل أصابه مكروه ؟

وفيما هو مستغرق فى توجساته وهواجسه ، إذا بأنتيلوكاس يتيممه ، ويقول له :

ـــ يابن بليوس ، جئتك أحمل إليك أخباراً سيئة . فقد قتل بتروكل ، ويجاهد الإغريق فى منع هكتور من الاستيلاء على جثته ، بعد أن أستولى على سلاحه .

رفع آخيل عقيرته بالبكاء ، عندما علم بمقتل صديقه الحميم ، فسمعته أمه ، تيتيس ، فجاءت إليه على عجل ، وسألته عما يحزنه ، وقد

حلت الكوارث بالإغريق عقابا لهم عن إساءة أجمنون إليه، فقال :

ـ حقا ياأماه ، لقد صادف الإغريق جزاءهم .. ولكنى اليوم فقدت صديقا عزيزاً ، كما فقدت سلاحى الذى أعرته إياه، وهو الذى أهداه الآلهة إلى أبى يوم عرسه ، وبت لاأفكر إلا فى الثأر من قاتله هكتور .

فقالت تيتيس :

ـ ولكن قتل هكتور إيذان باقتراب ساعتك .

فقال آخيل :

ـ أوترين للحياة قيمة إذا خلت من الصديق الصدوق ؟ لالن أهدأ بالا حتى أثأر له ، وما تهمنى العواقب بعد ذلك ، سيان عندى الموت والحياة .

فقالت تيتيس :

ـ حسنا ، يجمل بك أن تثأر لصديقك ، ولكنك أضعت سلاحك ، فانتظر يوما أو بعض يوم حتى أسأل « أفيستوس » إله النار أن يصنع لك سلاحا غيره ، ثم أختفت تيتيس .

وكان هكتور ، فى هذه الأثناء ، يحاول جهده أن يفوز بجثمان « بتروكل » . وكان أياس الأصغر (ابن أواليه) ، وأياس الأكبر (ابن تيلامون) يقاومانه بشدة . ولكنه أوشك أن يتغلب عليهما

إلا أن هيرا بعثت رسولة الآلهة « إريس » إلى آخيل ليسرع إلى نجدتهما ، ويعمل على إنقاذ « جثة » صديقه . فبرز آخيل إلى ميدان القتال واعتلى شرفا ، واكتفى بأن صاح ثلاث صيحات أشاعت الرعب والفزع فى قلوب الطرواديين ، فتراجعوا ، وتقهقروا ، وتأتى للإغريق أن يحملوا بتروكل إلى معسكره ، فحمله آخيل إلى خبائه . وهناك جعل يبكيه ويرثيه ، وأقسم ألا يواريه التراب حتى يقتل هكتور وينكل بأهل طروادة .

* * *

وأخذ الطرواديون ، وكانوا بعيدين عن مدينتهم ، يتشاورون فى أمرهم : أيعودون إلى المدينة ، ويحتموا بأسوارها ، أم يظلوا بمكانهم حتى يخرج آخيل لمحاربتهم ؟

فرأى بوليداس أن الاحتماء بالمدينة المنيعة أجدى على الجيش إلى أن تحين الفرصة الملائمة لقتل آخيل بالسهام . ورأى هكتور أن البقاء خارج المدينة ، ومهاجمة سفن الإغريق ، أدعى لتحقيق النصر ، وأخذ على عاتقه أن يتكفل بآخيل . . فأخذوا برأيه واحتفظوا بمراكزهم .

— ٣٢ —

وصلت تيتيس مع وصيفاتها حوريات البحار إلى قصر فولكان

(اسم آخر لأفيستوس) . وكان إذ ذاك فى كوره مشغول بالحدادة. فاستقبلتها زوجته « شاريس » بترحيب وهشاشة ، وقالت لها :

— أوه . . . أيتها الإلاهه الموقرة . . . أى مصادفة سعيدة قادتك إلى هنا .

ثم قادتها إلى مسكنها ، وأجلستها على عرش مشيد بذوق وفن . ثم أسرعت إلى زوجها فأخطرته ، فقال فولكان : « إن قصرى يستقبل أجدر الآلهات باحترامى ومحبتى . فقد مدت إلى يد العون حين غضبت علىّ هيرا زوجة أبى ، وقذفتنى من قبة السماء ؛ إذ استقبلتنى بين الأمواج الهادرة ، فوقتنى صدمة السقوط ، وأعدت لى مغارة بين صخور البحر ، بقيت بها تسع سنوات أزاول الحدادة « مهنتى المفضلة » ، متوارياً عن عيون تزدرينى ، وقلوب تمقتنى . فالآن تأذن الساعة برد الصنيع . اذهبى فاحتفلى بها حتى ألحق بك . »

وما غادرته زوجته حتى أخذ ينفض يده من أعماله ، ولحق بها مسارعا ، فلما رأى تيتيس قال :

— أيتها الإلاهة الجديرة بالاحترام والمعزة ، فيم جئت ؟

فنهنهت تيتيس دمعة مسفوحة بظهر يدها وقالت :

— مافى الوجود أتعس حالا منى . فقد اضطررت إلى الزواج من

بشرى ، رجله الآن على حافة القبر . وأرى ولدى كذلك قريب من ختام حياته . ومع ذلك تقضى الأقدار بألا أثنيه عن عزمه ، وأن أدعه يلاقى حتفه فى مناصرة الإغريق والثأر لصديقه بتروكل الذى أودى فى القتال ، وأضاع السلاح الذى زوده به ، وهو هدية الآلهة إلى أبيه فى يوم عرسه . والآن أراه بحاجة إلى سلاح غيره .

فقال فولكان :

ـ خفف عنك ، أنا كفيل بصنع هذا السلاح .

ثم غادرها إلى مصنعه ، وصنع لها درعا وسلاحا وخوذة ، وبذل غاية جهده فى تنميقها ، وتزويقها ، وجعلها من المتانة والصلابة بما يليق بعدة حربية يقوم إله بصنعها ، ثم رجع اليها وقال :

ـ إليك بما طلبت .

فأخذت الإلاهة ذات الأقدام الفضية السلاح الذى صنعه فولكان لولدها ، وغادرته شاكرة حامدة هابطة نحو الأمواج ، ووراءها وصيفاتها حوريات البحار .

ـ ٣٣ ـ

أمضى آخيل الليل باكيا منتحبا على جثمان صديقه . وفى مطلع الفجر جاءته تيتيس بالسلاح المنشود ، ووضعت على جثمان الفقيد حنوطا لكى تصونه من الفساد إلى أن يأذن ولدها بدفنه ، ومضت .

عندئذ خرج آخيل إلى الساحل ، وصاح بأعلى صوته ، داعيا الإغريق إلى الاجتماع ؛ فلبوا نداءه فرحين مسرورين .

وحضر إليه القادة والجند ، على رأسهم أوليس ، وديوميد ، وأجمنون — وكانوا قد برئوا من جراحهم — فقال آخيل مخاطبا أجمنون :

— ليس من الصواب أن يطول خصامنا ، بل ليت إنا لم نتخاصم وليت بريسيس لم تلدها أم . إذن لانقذت حياة كثيرين ممن أودوا فى القتال من رجالنا ، ومن بينهم بتروكل . ولكن دعنا الآن ننسى مامضى . فقال أجمنون :

— أيها الأبطال المغاوير ، ياأصدقائى الأعزاء . اعلموا أننى أنحرفت عن جادة الصواب يوم أهنت آخيل . ولكنى كثيرا ماندمت على ذلك . والآن أعيد إليه ، باسم الصداقة ، بريسيس ، طاهرة ، نقية الذيل كيوم أخذتها ، وأحبوه بكثير من الهدايا والمنح ، فقال آخيل :

— لاتكلمنى الآن عن هذا ، ولنتكلم عن القتال ، وليتأهب كل رجل له فى الحال .

فقال أجمنون :

— لك ماتطلب .

هنا نهض أودسيوس ، وأشار بالتريث حتى يتناول الجنود طعامهم ، لأن القتال على فراغ المعدة مضعف للمقاتل . فنزل آخيل

على رأيه . وبينما كانوا منهمكين بتناول الإفطار، أقتيدت بريسيس إلى خيمة آخيل ، ومعها كثير من الهدايا . فلما أبصرت بتروكل مسجيا على الفراش ، وقعت عليه مستعبرة منتحبة ، ثم قبلته وهى تعدد مناقبه ، وتذكره بلطفه ومآثره . واعولت معها الجوارى ، وشاركهن آخيل البكاء ، وهو يتجالد ويحاول أن يخفى دموعه عنهن، بينما كان حديث نفسه : « سيكون ثأرى لك ياصديقى حديث الأجيال.

— ٣٤ —

بينما كان كلا الجيشين يتأهب للقتال ، كان مجلس الآلهة منعقد فى السماء . إذ كان جوبتر قد أمر تميس إلاهة العدل أن تدعو الآلهة إلى الاجتماع . فجابت فضاء السماء ، وذرعت آفاق الأرض حتى جمعتهم . فجاءوا وحدانا وزرافات إلى قصر كبيرهم ، وبينهم آلهة الأنهار ، وحوريات الأدغال ، ولم يتخلف أحد سوى « أوسيان » إله المحيطات . وكان نبتيون أول متكلم فيهم ، إذ قال متسائلا :

— أى جوبتر ، أى قاذف الصواعق ، ومحرك السحب .. لماذا أمرت باجتماعنا ؟

فقال زوس :

— أى نبتون ، يا من تهز جوانب الأرض بأبخرتك ، أمرت باجتماعكم لأن الإغريق وأهل طروادة مقبلين على معركة فاصلة ،

ورغبتى أن أطلق حريتكم ليعاون كل منكم من يحب من الفريقين . والآن اذهبوا من حيث أتيتم .

* * *

أيقظ جوبتر الفتنة بين الآلهة بقراره هذا ، فانقسموا إلى قسمين: فريق يناصر طروادة ، وهم : مارس ، وأبولون ، وديان إلاهة الصيد ، ولاتون إحدى زوجات زوس ، وإجزانت إله النهر ، وفينوس ؛ وفريق يناصر اليونان، وهم : جينون ، وبلاس، ونبتون وفولكان ، ومركير (اسم آخر لهرمس) إله الفصاحة والتجارة ورسول الآلهة .

ونزل الآلهة إلى ميدان الحرب يساعدون المحاربين ، ويحفزونهم على القتال ، وكل يود لو انتصر فريقه .

ثم مالبث أن قامت بينهم حرب ضروس ومعارك ضجت لها الأرض والسماء .

— ٣٥ —

خرج آخيل إلى القتال بين جموعه الزاخرة ، فصادف إنياس بن فينوس — وكان أبولون قد أعاده إلى جيش طروادة بعد أن أنقذه من ديوميد — فكاد يذيقه كأس المنية بعد صيال ومعركة عنيفة ، لولا أن اختطفته أمه « أفروديت » . ومضى آخيل يقتل كل من

يصادفه ، وأكثر من النقتيل حتى امتلأ نهر «إجزانت» ابن جوبتر ، الذى كانت تدور عليه رحى الموقعة ، بجثث الموتى من الطروادين ، فقال النهر :

ـــ لقد ملأت أمواهى الصافية بهذه الجثث . وهكذا ستعوقها فى سيرها إلى البحر . فأمسك عن النقتيل يا أمير المحاربين .

فقال آخيل :

ـــ يا إله هـذه الضفاف ، يا ابن جوبتر ، ما أرى باستطاعتى الامتناع عن مقاتلة الطروادين حتى يردينى هكتور أو أرديه .

ثم استمر آخيل فى تقتيله غير عابىء بالنهر ، وأخذ يتعقب الفارين الذين كانوا يقذفون بأنفسهم إلى مياهه أحياء ، مخافة بطشه ونقمته . فاندفع آخيل وراءهم وخاض فى النهر . إذ ذاك ثارت ثائرة ابن جوبتر وتعكرت أمواهه ، وهـدرت أمواجه ، وقذف على ضفافه ما استودع من جثث الهالكين ، وأسمع خوارا كخوار الثور ، وأخفى الأحياء من الفارين فى مغاوره وأفواه جسوره ، وأخذ الموج الفائر المزبد يكتنف آخيـل من كل جانب ، ويتهدده بالغرق . فأمسك آخيـل بغصن شجرة على الشاطىء ، فاقتلعتها الأمواج ، وأظهرت جذورها فى الهواء ، وحملها التيار . ولكن آخيل حاول أن يحتمى بها ضـــد اندفاع الأمواج التى أخذت

تصارعه ويصارعها ، ولكنها غلبته على أمره ، فاستنجد بالآلهة قائلا :

ـــ أما من يمد يده إلىّ من آلهة السماء ؟

فلم يمض إلا قليل حتى سمع بلاس ونبتيون قائلين :

ـــ لا تخف إنك ناج ، وهذا يوم سيتقرر فيه مجدك .

ولكن النهر لم يعبأ بذلك ، ومضى ينقله من خطر إلى خطر ، واستعان بأخيه «سموا» للإجهاز عليه قائلا :

ـــ هيا ، يا أخى «سموا» ، نبذل ما وسعنا من جهد حتى نغرق هذا المحارب ، الذى يرمى إلى غزو طروادة ، وتحطيم أسوارها ، وهلاك شعب .

فتآزر معه سموا ، وفارت مياههما مشتركة ، وأزبدت وأظهرت حصاها وطميها ، وكادت تقضى على آخيل غرقا . ففزعت جينون وخاطبت ولدها فولكان قائلة :

ـــ أيفسد علينا هذا النهر خططنا . إن آخيل إن هلك ، نجت طروادة ... هيا يا فولكان ، فضع حدا لثورة هذا النهر الغرير ... علمه كيف يتجاسر على الحيلولة دون إرادتنا .

هبط فولكان فى الحال بلهبه ودخانه ، وسلط ناره على مايكتنف النهر من مروج ، فأحرقت النار ما عليها من جثث القتلى ، ثم اندلع

لهيبها إلى الأشجار الباسقة التى تحف بجانبيه ، فجعلتها أثرا بعد عين . ثم صوب فولكان غضبه نحو النهر نفسه ، فاشتعلت أمواجه ، وضجت مخلوقاته ، وتسلل أخوه سيمواس هاربا . فقال النهر :

ـــ أى فولكان ، ما بوسع إله آخر أن يثبت لنارك . ليستول آخيل على طروادة فى الوقت الراهن اذا شاء ، فما أنا متعرض له بعد الآن .

اذ ذاك كف فولكان عن محاربة النهر ، ونجا آخيل . ثم إن القتال استعر بعد ذلك بين بقية الآلهة بسبب هذا الحادث ، واستطاع آخيل فى هذه الأثناء أن يشيع الذعر فى نفوس الطرواديين بما أكثر من قتلاهم ، وساقهم أمامه سوق الأنعام ، وهو آخذ فى مطاردتهم وتعقبهم . وحين كان الطرواديون يتدفقون أمام آخيل إلى داخل المدينة للاحتماء بأسوارها ، كان الملك بريام واقفا فى أحد أبراجها ينظر إليهم . فأمر بأن تفتح أبواب المدينة جميعاً ، ليتمكن جيشه من دخولها عجلان ، قبل أن يهلك منهم آخيل خلقا كثيرا . وأوشك آخيل فى مطاردته أن يقتحم المدينة ، لولا أنه توقف يستريح قليلا ، فاستبل آجينور بن أنتينور هذه الفرصة ، وقذفه بقناته ، فاصطدمت بالدرع الواقى عند ذقنه ، فلم تصبه . فانقض آخيل على أجينور ، ولكن أبولون حمله فى سحابة ، ووضعه

فى مأمن بعيداً عن ميدان القتال . ثم شبه لآخيل أن المحارب الطروادى آخذ فى محاورته مبتعداً عن طروادة ، فاندفع وراءه منقاداً بقوة الغضب ، وهو لا يعلم أن أبولون قد اتخذ صورته ويحاول إبعاده عن أسوار المدينة . فانتهز الطرواديون هذه الفرصة ودخلوا مدينتهم أفواجا . وما استطاع أحدهم أن ينتظر رفاقه ليسأل عمن نجا منهم ومن سقط صريعاً ، فكان حسبه أنه من الناجين السالمين . ولكن هكتور لم يرقه أن يفر فرار الجبان الهلوع ، فلبث خارج الأسوار ، وعبثا حاول بريام أن يصيح به لينجو بنفسه . وكان آخيل إذ ذاك قد كف عن مطاردة أبولون فى صورة آجينور لما أعجزه من أمره ، وأخذ طريقه حيث يقف قائد الطرواديين . فكرر بريام صيحاته قائلا :

— هكتور يا أعز أبنائى . . ادخل المدينة وإلا هلكت . فما يعوضنى عنك ولا يعوض أمك شىء فى الوجود . . كن بى رحيما يا بنى ، ولا تعرض حياتك للضياع ، وإلا ضعت بعدك .

وكذلك قالت هيكوبا ، ودفعت الصيحة وراء الصيحة ، وأظهرت ثديها لولدها تناشده بحقهما عليه أن يدخل المدينة . ومع ذلك جمد هكتور فى مكانه ، واستند على الجدار فى انتظار آخيل ، وقال لنفسه :

– إذا دخلت المدينة تعرضت لملامة « بوليداماس » ، لأنى لم أستمع لنصحه يوم أشـــار بالاحتماء وراء الأسوار ،فعارضته بضرورة البقاء فى السهل لصد آخيل ، وقال الناس « هكتور» سبب ضياعنا . وإن بقيت هنا تفاديت بالموت لوم اللائم إذا لم يقدر لى الانتصار على آخيل .

ووصل آخيل فى هذه الأثناء ، وهو يمشى مشية إله الحرب . فلما رآه هكتور اضطرب ، وخفق قلبه خفقاناً شديداً ، واستبد به رعب لم يعهده من قبل ، فتقهقر إلى الوراء ، وترك أبواب المدينة ، ثم ولى الإدبار ، فعدا آخيل خلفه كباز يطارد حمامة . ومرا بهذه البقعة الجميلة من مصب نهر «إجزانت» التى كانت تستحم عندها صباياً وحسان طروادة فى أيام السعود ، وظلا يتسابقان حول أسوار طروادة حتى قطعاها ثلاث مرات ، فأشفق كبير الآلهة بهكتور ، وحدثته نفسه بإنقاذه ، ولكن منيرفا لفتت أنظاره إلى وجوب احترام حكم الأقدار .

وعندما وصل هكتور إلى مصب النهر لرابع مرة بمعاونة أبولون الذى كان يطيل أنفاسه ، نصب جوبتر ميزانه الذهبى ليستنبىء الأقدار عن قضائها فرجحت كفة هكتور ، وشالت كفة آخيل . إذ ذاك التزم أبولون جانب الحياد، وانطلقت منيرفا لتعاون ابن بليوس ،

فظهرت لهكتور فى صورة أخيه « ديفوب » وقالت له :

ـ أثبت يا هكتور لآخيل ولنحاربه معاً .

فقال هكتور :

يا أعز أخوتى ، يامن خرجت لنجدتى ، على حين ظل الباقون وراء الأسوار . . . أشكرك .

ثم ثبت هكتور لآخيل ، فقذفه هذا الأخير برمحه فأخطأه . فرماه هكتور « بقناته » فلم تنفذ فى درعه . إذ ذاك نادى أخاه ليناوله رمحا آخر ، فإذا هو أثر بعد عين . فعلم إن الآلهة قد خيلته له ، ودعته إلى حتفه . ولكنه مضى فى القتال إلى النهاية ، فانتضى حسامه من غمده ، وانقض على آخيل . وكانت بلاس قد أعادت إليه رمحه ، فانتهز هذا غرة من عدوه وأغمده فى عنقه ، فسقط هكتور صريعا على الأرض ، فقال الظافر :

ـ أحسبت أنك آمن مذ قتلت بتروكل ؟ . . . أو ما عرفت أن وراءه صديقا يأخذ بثأره ؟ ألا فاعلم أن جثتك لسباع الطير ، وجثمانه للتشريف والتكريم .

فقال هكتور ، وهو يعالج الروح ويكابد النزع :

ـ أناشدك ألا تدع جثتى للسباع ، وأرددها على أم تذرف

عليها دمعة ، وعلى أب يعلى لها قبرا ، فيغدقا عليك ذهبا تلقاء صنيعك .

فقال آخيل

ـ لا تغرر بنفسك ، فماتكون جيفتك إلا لسباع السماء ، وسباع الأرض .

فقال هكتور ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :

ـ كنت أعلم أنك غليظ القلب . ولكن لا يلبث باريس بمعونة أبولون أن يرديك عند أبواب طروادة .

ثم فاضت روحه ، ولكن آخيل قال له رغم ذلك .

ـ إلى الموت ... وعندما تريد السماء موتى ، فلا مرد لقضائها.

ثم جرد آخيل جثة هكتور من سلاحها . وحدثته نفسه بأن يفتح طروادة فى ذلك اليوم ، ولكن الأقدار لم تكن قد قضت بفتحها حينذاك ، فصرفته عن ذلك إلى التفكير فى دفن صديقه ، فأمر جيشه بالعودة إلى السفن ، فعاد الجيش منشدا أناشيد النصر والظفر .

وثقب آخيل قدمى هكتور وشدهما إلى مركبته بسير من الجلد (وهو المنطقة التى أهداها أياس إلى هكتور) ، وساقها وهى تجر الجثة وراءها على الأرض .

ورأت أمه هكوبا هذا المشهد ، فنزعت شعرها ، وملأت الجو

صياحاً وعويلا ، وتعالى أنين أبيه وتوجعه ، وانفجر الناس حولها بالبكاء ، وشاع الخبر فى المدينة، فقامت فيها مناحة وملأتها الأحزان والأكدار . وكانت أندروماك بقصرها تشرف على إعداد حمام لزوجها ليزيل عن نفسه غبار الحرب حين العودة . ولم تكن قد علمت بالخطب بعد ، ولكن بكاء الناس فى الشوارع وصياحهم بلغ سمعها فأفزعها ، فنهضت مسرعة لتستطلع الخبر ، وقالت لوصيفاتها .

ــ اتبعننى . . . إن قلبى يحدثنى بنازلة . أسمع صوت أمى ، وأرى قلبى يخفق خفقانا شديدا ... أى مكروه وقع ... أرجو ألا يكون هكتور قد نازل آخيل .

ثم أسرعت إلى الأسوار ، فلما علتها ، وشاهدت مركبة آخيل تجر وراءها جثة زوجها . أظلمت الدنيا فى عينيها، وغابت عن وعيها بين ذراعى كاسندرا أخت هكتور ، وحين ثابت إلى رشدها قالت تبكيه وترثيه :

ــ هكتور يا لحظنا العاثر . لقد ولد كلانا فى ساعة نحس ، فيا ليت أمى لم تلدنى . أى زوجى العزيز ، لقد مضيت إلى عالم الأموات، وتركتنى فى عالم الأحياء وحيدة فريدة ، أرملة محزونة .. ومازال ولدك فى مهده تعوزه رعايتك . لسوف يلتمسك فلا يجدك . وإذا قدر له أن ينجو من مخاطر هذه الحرب فسيظل خافض الرأس ،

مسفوح العبرات . ولعله أن يمد يده لسؤال أصدقائك ، فيرده البعض قرير العين بالقليل مما يرضى ، ويرده البعض كسيرا مهيض الجناح . فإذا عاد إلى أمه ، حين لا تكون إلا أرملة مهجورة ، ذرف دموعا ثرة ، لا تستطيع أن تنهنهها .

وعهدها به أن تراه بين ذراعى أبيـــه معززا مكرما . ثم من للطروادبين بعدك ياهكتور ؟

هكذا رثت أندروماك زوجها . وكأنى بها قد ذرفت دماً بعد دمعها .

— ٣٦ —

أحتفل آخيل بدفن صديقه بتروكل إحتفالا رائعا . وعقدت مسابقات و مباريات بين القادة والجنود كما كانت تقضى به عادة تلك الأيام عند دفن عظيم من العظماء ، أو بطل جدير بالتكريم، ووزع آخيل على الفائزين كثيراً من الأسلحة والأسلاب التى غنمها فى غاراته المختلفة .

وعندما أرفض الحفل فى المساء ، ظل آخيل يقظاً الليل بطوله، يبكى صديقه . فإذا كان الفجر ، شد جيادة إلى مركبته الحربية ، وأوثق بها جثة هكتور ، وساقها حول القبر ثلاث مرات ، ثم عاد إلى خيمته ليستريح . وكان أبو لون قد وقى الجثة بدرعه ، لئلا تتمزق أشفاقا عليها . وكان الآلهة ينظرون إلى هذا المشهد، وهم كثير من

التأثر والشفقة . فتشاوروا فيما يفعلون ليجنبوا جثة البطل الطروادى مزيدا من غضب الظافر . فحرضوا « مركير » رسول الآلهة على اختطافها . إلا أن جينون وبلاس — وما كان فى وسعهما أن يخففا من حدة غضبهما على باريس وآله منذ كان حادث التفاحه — رفضا أن يكون ذلك ، وشايعهما نبتون . وفى اليوم العاشر أتى أبولون مجلس الآلهة وقال :

— ماأقساكم يامعشر آلهة الاولمب ؟ أما تذكرون يوم كان هكتور يقدم لكم الضحايا والقرابين . أو ماترونه جديراً بأن ترد جثته إلى زوجه وأمه وولده وأبيه بريام ، الذين يتحرقون شوقا إلى تأدية واجبات دفنه ، وتشييعه إلى مقره الأخير . إن آخيل يصم أذنيه عن العدالة ، ولم يعد بقلبه أى شعور من الحياء . وإذا لم يستح الإنسان ، كان له أن يصنع ما يشاء .

فقال جوبتر :

— إن هكتور أعز البشر عند الآلهة ، وسنقوم حيالة بما نراه حقا له عندنا . اذهبى يا إريس إلى تيتيس فاستدعيها .

أسرعت إريس كالعاصفة إلى تيتيس فاستدعتها ، فأقبلت محزونة لأنها كانت تديم التفكير فى إقتراب أجل ولدها ، فقال لها زوس :

ـ أستدعيتك يا تيتيس مع أحزانك التى أعلم مصدرها .
وذلك لتتصل بولدك وتكلفيه من قبلنا بألا يسترسل فى غضبه ، وبأن يرد جثة هكتور إلى أبيه ، وسأبعث إريس بدورى إلى بريام ليذهب إليه ملتمسا ولده . وفى الحال قصدت تيتيس ولدها وأبلغته الرسالة الإلهية . وفى هذه الأثناء طارت إريس إلى طروادة ، فوجدت بريام جالسا بين أبنائه فى فناء قصره ، وهم يبللون الثرى بمدامعهم الثرة المنهلة ، فاقتربت منه وظهرت له وحده ، فأخذته رعشة ، فقالت له :

ـ لاتخف يابريام . ، ماجئتك بمحنة جديدة . ولكنى مبعوثة من قبل زوس لأكلفك بالذهاب إلى آخيل لافتداء ولدك . اذهب إليه غير مصحوب إلا بأحد حجابك ليقود مركبتك. واعلم إن آخيل إذا رآك سيوقرك ، ويعطيك حقك من الاحترام ،ولن يسعه إلا العطف على ملك متضرع .

قالت ذلك ثم حلقت فى الجو . فلما جن الظلام، قام بريام فاختار من خزائنه أفخر الأثواب ، وأمر بإعداد مركبته ، واستصحب حاجبه أيدوس . وفيما هويهم بالركوب ، رأته زوجته هيكوبا فبكت وقالت له :

ـ أين سداد رأيك الذى اشتهرت به يوما ؟ أيذهب الإنسان

بنفسه إلى معسكر أعدائه لمقابلة قاتل ولده ؟ أما تخاف أن يلحقك بولدك ؟ . آه لو استطعت لقرضت قلبه بناجذى . لاتذهب ودعنا ههنا نعالج أحزاننا فى هدوء .

فقال بريام :

ـ دعينى أذهب ، فما عاد يهمنى موتى من حياتى . وليذبحنى آخيل على أن أضم جثمان ولدى بين ذراعى . ولكن لك أن تهدئى روعك ، فالآلهة هى التى أشارت على بالذهاب .

ثم صعد بريام وحاجبه إلى المركبة وانطلق إلى شوارع المدينة يشيعه أبناؤه وشعبه حتى أبوابها ، ثم عادوا ، وسارت العربة فى المروج يقودها الحاجب بمهارة وحذر .

ورأى جوبتر ، رب السحب القاتمة والصواعق والبروق ، بريام وحاجبه قائدين المركبة بين السهل والوعر ، فأشفق على الملك المنكوب ، وقال لولده « مركير » .

ـ اذهب وكن دليل بريام حتى ينفذ إلى خباء آخيل ، دون أن يراه أحد من الإغريق .

فارتدى مركير فى الحال حذائيه المجنحين ، وتناول عصاته السحرية ، ثم شق الفضاء إلى شواطىء الهلسبونت ، وتقدم ناحية بريام فى صورة حدث يأسر الالباب بحسنه ، فرآه الحاجب فقال

للملك أرى محاربا مقبلا سيكون خطرا علينا بلاشك . هلم فلنسرع. فارتجف بريام ، واستحوذ عليه الرعب ، ووقف شعر رأسه . ولكنه اطمأن حينما خاطبه مركير قائلا :

— يا أبتاه . . إلى أين أنت ذاهب بهذه الجياد فى ظلام الليل وبرده ، والبشر جميعهم نيام فى هذه الساعة ، إلا من أرقه هم من الهموم أو مقصد من المقاصد ؟ اما تخاف الإغريق وهم أعداؤك الذين تحالفوا على خرابك ؟ . . إن أحدهم إذا رآك وأنت ماض بهذه الطرف وهذه النفائس لسال لعابه ، وجعلك هدفا لأعتدائه . ولكن لا تخف . أنا قائدك إلى حيث أردت ، وما أراك فى سنك إلا كأبى .

فقال بريام :

— حق ما تقول ياولدى . ولكن الآلهة ساهرة علىّ مادامت قد أرسلتك لمعونتى .

فقال مركير :

— حقا إن الآلهة ترعاك . ولكن أصدقنى القول ، إلى أين أنت ماض بهذه النفائس ؟ .أفارون أنتم من طروادة مخافة اقتحامها بعد مقتل هكتور العظيم .

فقال بريام :

ـ ومن أنت أيها النبيل ، يا من تذكر ولدى ؟ . . أو رأيته قبل مقتله ؟

فقال مركير :

ـ أنت بريام إذن ؟ . . أجل رأيته مراراً حين بلغ أوج بطولته ، وهو يسوق الإغريق إلى سفائنهم ، ويشدد عليهم الخناق . كنت إذ ذاك لا أشترك فى القتال لأننى «تسالى» أحد أتباع آخيل .

فقال بريام :

ـ ما دمت تنتمى إلى هـــذا البطل ، أفتعلم ما صنع آخيل بجثمان ولدى ؟

فقال مركير:

ـ ولدك الآن راقد إلى جانب خباء آخيل منذ اثنى عشر يوما . وجثته لم يتطرق اليها الفساد . وآخيل يجرها فى كل صباح حول قبر صديقه ، دون أن يصل إلى تغيير معالمها ، لأن الآلهة تحوطها برعايتها ، فصانت جماله وطراءة بشرته . بل لقد اختفت دماء جروحه .

عندما سمع بريام هذا القول انشرح صدره ، وقال ليس من عجب فى ذلك ، وكثيراً ماذكرها ولدى فى معابدها وخصها بالقرابين . ثم مدّ يده بكاس ذهبية إلى « مركير » ، راجيه أن يتقبلها هدية منه .

فقال مركير :

ـ ما أحب أن آخذ منك شيئا بغير علم آخيل . فإني أكن له من الاحترام والهيبة ما يجعلني أمنع يدي عما هو مخصص له . ومع ذلك سأكون رفيقك ودليلك إليه . فإنه يخيل إليّ إنك ذاهب لاسترداد ولدك .

ثم صعد مركير إلى المركبة وأخذ اللجم والسوط ، وقاد العربة بنفسه حتى وصل إلى معسكر الإغريق ، فوجد الجنود إيقاظا ، فبعث النوم إلى جفونهم فداعبها . ثم أزال الحواجز وفتح الأبواب وأوصل المركبة إلى خباء آخيل . وقال لبريام .

ـ الآن انتهى دوري .. أنا مركير رسول جوبتر ، جئتك بأمره لمعاونتك ، وما باستطاعتي الظهور أمام آخيل ، لأن الآلهة لاتساعد البشر بهذه الصراحة . ولكن اذهب أنت وتوسل إليه ، وقبل ركبتيه ، وذكره بأبيه لتهز مشاعره .

ثم إختفى مركير .

فدخل بريام وحده إلى خباء آخيل ، تاركا حاجبه بمركبته . وكان آخيل قد انتهى من عشائه ، فتقدم إليه وجثا أمامه على ركبتيه ، وقبل يديه الملطختين بدم أبنائه ، فظهرت إمارات الدهش على وجه آخيل ، وعلى كل من كان إلى جواره ، ولكن بريام قال :

ـ أذكر أباك يا آخيل ، إنه مثلي قد علته كبرة ، ونزل به

الضعف . ولعله الآن مهدد من جيرانه ، ولا يجد من يخف إلى نجدته. على إنه يعلم أن ولده حى يرجى . ولكن أنا الشقى البائس قد فقدت أحسن أبنائى : هكتور الذى قتلته ، وهو يدافع عن وطنه . ومن أجله خاطرت بنفسى ، وجئت إلى سفنكم . فأتوسل إليك أن تشعر قلبك الرحمة بى . فما أظن فى الدنيا أحداً قبلى أقدم على لثم يد واتره وقاتل ولده ، ورهقه مايكون فى ذلك من ألم .

أثار هذا القول ذكريات جمة بنفس آخيل . فتذكر أباه وضعفه ، وتذكر ماسيكون حال أبيه عندما يحين يومه . فأنهض الشيخ بلطف ورفق ، وبكى معه . . ثم قال آخيل فى آخر الأمر ، وهو معجب بملك طروادة متأثر بشيخوخته :

ـ أيها الشيخ .. إن قلبك قد قُدّ من حديد ، وإلا لما جئت إلى قاتل ولدك . ولكن اجلس ودع البكاء والأحزان . فالدنيا خليط من مسرات ومكاره ، ومزيج من مر وحلو . والواجب أن يوطن الإنسان نفسه على ماعساه أن يصادف فيها . ولا تحسبك انفردت بالتعاسة ، فهناك أبى قد أمدته الأقدار بكل مايجعل الإنسان عزيز الجانب ، عالى القدر . ومع ذلك قضت أن يحرم فى شيخوخته من ولده الوحيد ، اذ لا ألبث أن أموت عما قليل . كذلك أنت ، فيما حدثت ، كنت ملكا عريض الجاه ، وكان ملكك يمتد من

ليسبوس إلى ضفاف الهلسبونت ، فإذا بك قد فقدت اليوم أكثره ، وأضحت مدينتك مهددة بالسقوط . لماذا إذن البكاء ، وعلام إذن الأحزان ، وحال الدنيا على ماترى من فهاهة وقلة وضؤولة ؟

ثم قام آخيل ، وخرج مستصحبا بعض أعوانه ، وذهب إلى جثة هكتور فأمر بغسلها وتحنيطها ، ثم وضعها على المركبة ، وغطاها بثوب من الثياب التى أحضرها بريام مع النفائس ، وحمل الباقى إلى خيمته ، ثم ذبح شاة وأعد طعاما لضيفه المنكوب فى ولده ووطنه ، ثم قدمه إليه قائلا :

ــ هذا قرى لك فكله . . إنك ضيفى . ولك فى الصباح أن تستصحب جثمان هكتور ، وسأمنع القتال عشرة أيام حتى تؤدى واجبات دفنه .

. . . مايمنع الثكل من أن تؤدى حق بطنك عليك . فما امتنعت « نيوبية » ملكة ثيبا التى كانت تطاول الإلاهة « لاتون » وتسخر منها ، عن تناول الطعام برغم مقتل أبنائها وبناتها الأربعة عشر بيد ديان وأبولون ، إثئاراً لأمهما ؛ وإن كانت الأحزان قد أحالتها إلى صخرة فى نهاية الأمر .

فنهض بريام إلى المائدة يتوكأ على يد آخيل ، وهو معجب بنبل مظهره ، وتناول مع حاجبه نصيبا من الطعام ، حتى إذا انتهى من

ذلك ، أعدّ له فراشا ليأخذ نصيبا من الراحة على أن يرحل فى مطلع الفجر . ونام بريام ، واستطاب النوم ، لأنه كان منهوك القوى ، محروما من الراحة منذ قتل ولده . ولكن مركير خاف أن يمتد نومه فتسوء العقبى ، فجاءه ومال على رأسه ثم قال :

ـ أيها الشيخ . . . إنك لاتفكر فى المخاطر التى تتهددك ، فمذ استقبلك آخيل بالحفاوة والتكريم وأنت تطيل فى نومك بين أعدائك . لقد كلفك ولدك فدية جسيمة ، فإذا وقعت بين يدى أجمنون كلفت ما بقى من أبنائك عشرة أضعاف ما أحضرت لآخيل حتى تفتدى .

سمع بريام هذه الأقوال ، فقام مفزوعا ، وأيقظ حاجبه ، وكان مركير قد أعد المركبة وعليها جثمان هكتور . وتولى القيادة من جديد مخترقا المعسكر ، دون أن يهيء لأحد من الإغريق أن يرى الطروادَيين . وحين وصلوا إلى نهر إجزانت ، المشهور بجمال مجراه ، نشر مركير جناحيه ، وطار نحو الأولمب . وكان الفجر آخذاً فى الانبثاق ، والملك وحاجبه مسترسلين فى التفجع والتوجع ، والجياد مطأطأة الرأس ، تجر الجثة وراءها ، وهى تتقدم نحو المدينة ، حتى إذا بلغت أبوابها والناس نيام ، شعرت بها كاسندرا ـ وكانت وحدها على الأسوار ، تراقب عودة أبيها ـ فأعولت ، وصاحت ، حتى أقبل

الناس على صياحها وعويلها من كل فج ، وسمعوها وهى تقول بصوت يفتت الأكباد :

ـ يا أهل طروادة . كنتم تخرجون للقاء هكتور ظافراً ، فاخرجوا اليوم للقائه محمولا على نعش .

فعلا نحيبهم وعويلهم ، وتقاطروا حول المركبة حتى عاقوا طريقها وعذروا مسيرها . فأمرهم بريام بإفساح طريق لها . وأخيرا وصلت المركبة إلى فناء القصر ، ووضعت الجثة على سرير ، وأخذ المرتلون يرفعون أصواتهم بالمراثى المحزنة بين الآنين ، والزفرات ، والنحيب .

ولما رأت أندروماك جثمان زوجها قالت :

ـ أهكذا غادرتنى أرملة محزونة ، لا أمل لى فى أن أرى ولدى كبيرا ، إذ لا تلبث طروادة أن تسقط ، فيعتدى على حياته معتد ، كنت وانره .

ومن يدرى لعلى أساق إلى الأسر أمة ذليلة . . واهكتوراه ، إذا بكتك المدينة لأنك كنت حامى زمارها ، ولا تلبث أن تسقط من قمة عظمتها ، فإنى أكثر أهلها بكاء ، وأشدهم توجعاً ، لأنك كنت زوجى ، وحامى ، وحبيب القلب معا ، ولأنك لم تجدنى إلى جوارك ساعة موتك ، فأغمض عينيك ، وأشد على يديك ،

وأسمع كلماتك الاخيرة ، فأهتدى بها وأجعلها نبراسى ما عشت ... أسفاه .. أسفاه

ثم قالت هيكوبا مستعبرة باكية :

ــ ما أشك ياولدى ، يامن فجعتنى وثكلتنى ، فى إعزاز الآلهة لك ميتاً ، إعزازهم لك حيا . وإلا لما عاد إلينا جثمانك ، ليحظى بالتشريف والتكريم .

وقالت هيلين وجفونها مخضلة بالدمع :

ــ ليتنى مت قبل أن أكون سببا فى فجيعة أهلك فيك ياهكتور ، وقبل أن أعرف أخلاقك الدمثة . يامن كنت صديقا ، وقد عز الصديق . يا من كنت محسنا إلىّ ، وقد عز المحسن . يامن كنت متحاميا ملامتى كأبيك ، دون الأهل جميعا ، وكنت أنا نفسى أرانى موضعا للملامة .

وكان الشعب يتجاوب مع هاتيك الرائيات النائحات ، والعبرة تبعث العبرة . ولكن الساعة أذنت أخيرا بالتهيؤ لدفن هكتور ، فدفن بالتكريم من شعبه ، وشيد قبره عاليا شامخا .

— ٣٧ —

عقد الطرواديون مجلساً استشاريا للنظر فيما هم فاعلون ، أيواصلون الحرب أم يردون هيلين والغنيمة إلى الإغريق مع تعويض مناسب ؛

واختلفوا فى هـذا ، وذهب كل منهم إلى رأى . وأشار بعضهم بألا يلجأ الطرواديون إلى هذا أو ذاك ، ولكن يجلون عن الوطن ويجنبون أنفسهم ماعسى أن ينالهم من آخيل، وهو، على مايعلنون ، لاضريب له فى فنون القتال . ولكن بريام سفه هذا الرأى ، وقال إن الوطن عزيز ، والجلاء لايشير به عاقل ،ولكن نظل إبه مدافعين حتى نفوز بالنصر شرفاء،أو نبوء بالهزيمة شرفاء.فقال بوليداماس ، الذى سبق أن أشار على هكتور بالاحتماء بأسوار المدينة اتقاء لآخيل ، إنه يحبذ هذا الرأى ، ولكنه يؤثر ردهيلين ومصالحة الهيلانيين . فلما سمع باريس ذلك منه ، قال حانقا غاضباً :

ــ أيها الجبان . . . ما أشرت إلا بما يكشف عن خور عزيمتك ، على حين لا يكون شرفنا وعزتنا إلا بمواصلة القتال .

فقال بوليداماس :

ــ أيها الأمير البغيض ، لو أحسنت لما أسمعت صوتك ، لأنك سبب كل هذه النكبات والنوازل التى تنزل بوطنك .

شعر باريس بما فى قول بوليداماس من حق ، فلم يحر جوابا . ولكن تغلب رأى القائلين بإمساك هيلين والدفاع عن المدينة ، وإن كانت النتيجة انكسارا . لأن الانكسار فى مواطن الشجاعة

والذود عن الأوطان ، مفخرة يتحدث بها التاريخ . هذا فضلا عن أن بريام كان ينتظر إمداداً من « ممنون » ابن أخية « تيتون » ملك مصر وأثيوبيا . وهو بطل فذ باستطاعته أن يثبت لآخيل ، ويصد مخاطره عن طروادة ، خاصة وإنه إلهى المولد مثله ، إذ أن أمه إلاهة الفجر .

* * *

بات الطرواديون إذن يترقبون مقدم أمير مصر ، وهم متحصنون بالمدينة ، ولم يمض إلا قليل حتى كان ممنون بهـا على رأس جيش من الجنود السود . إذ ذاك دبت الشجاعة فى نفوس الطرواديين ، وخرجوا إلى ميدان القتال ، إلى جانب حلفائهم الأثيوبيين ، بقيادة هذا الأمير الذى أظهر من ضروب الشجاعة ما أعاد إلى ذاكرة الجند بطولة هكتور ، وأيام مجده ، وصولته . فازدادت حماستهم وأعجزوا اليونان حينا من الدهر .

وفى إحدى المواقع ، بينما كان ممنون فى جانب من ميدان القتال يذيق كثيرا من الهيلانيين كأس الردى ، كان كذلك آخيل فى جانب آخر يورد كثيرا من الطرادبين موارد الحتف . واستطاع ممنون أن يقتل أنتيلوكاس بن نستور . فحزن أبوه لمقتله حزنا شديداً ، وتقدم لمنازلة قاتل ولده ، فعرف فيه ممنون صديقا قديما لأبيه ، فتلطف

معه ، وحذره من الإصرار على منازلته،فلم يسع نستور إلا التنحى عن قتاله ، واستنجد بآخيل .

جاء آخيل لملاقاة ممنون ، فقاومه هذا مقاومة شديدة ، وأظهر إنه من فصيلة الأبطال الجديرة بالإعجاب والتقدير. ولكن ساعة موته كانت قد أذنت، فسقط صريعا بحسام ابن بليوس. فملأت أمه (أيوس) إلاهة الفجر الدنيا عويلا وصراخا ، وأشاعت الظلام فى جميع السهل، ثم اختطفت جثمان ولدها ، ودفنته على ضفة الهلسبونت ، وذهبت إلى زوس مولهة ، محزونة ، مسفوحة العبرات ، وسألته أن يميز قبر ولدها عن قبور البشر ، فأمر أسراب الطير بألا تغادره على المدى،وأن تنشر عليه من أجنحتها ظلا ظليلا ، وأن تؤنس وحدته بغنائها وشدوها . ولكن « الفجر » لم تجد فى هذا عزاء عن فقد ولدها ، فأخذت ، منذ ذلك الوقت ، تسفح عبراتها فى أنداء الصباح . ولكن قومه أقاموا له تمثالا فى صعيد مصر ، كلما طلعت عليه الشمس أسمع من الأصوات ما يشبه الموسيقى . وكأنى به يواسى أمه المحزونة ، وهى مولية عن العالم فى باكورة كل يوم .

* * *

بعد مقتل «ممنون»،فزع الطروادیون والاثيوبيون فزعا شديداً، ولم يثبتوا لآخيل الذى استوحش فى قتاله . فخيل إليه أن ساعة

سقوط طروادة قد حلت . فاتجه إلى باب المدينة الرئيسى مطارداً الفارين المدبرين . فرماه باريس بسهم مسموم من فوق أسوار المدينة أصاب كعبه — مقتله الوحيد — فأرداه قتيلا .

إذ ذاك حاول الطرواديون الاستيلاء على جثته ، فدافع أياس الأكبر وأودسيوس عنها دفاعا مجيداً . واستطاع أودسيوس أن يحمل الجثة على عاتقه فى آخر الأمر ، موليا عن حلبة القتال ، بينما كان أياس يذود عنه هجمات أعدائه . وكان حزن الإغريق عليه بالغا . ونزلت أمه الإلاهة تيتيس ، فتزعمت الاحتفال بدفنه . وأقامت على قبره ما جرت العاده بإقامته على قبور الأبطال من مسابقات ومباريات . ووزعت كثيرا من أسلابه على المتبارين . ولما أرادت أن تخص بعضهم بسلاحه ، تنازعه أياس الكبير وأودسيوس ، وجرت بينهما مفاخرة ، فأخذ كل منهما يعدد مناقبه ، ويصور مقدار الخسارة التى أنزلها بطراودة .

وأخيرا حكم الحضور لأودسيوس بسلاح آخيل ، فاغتم أياس بن تيلامون ، وقتل نفسه بالحسام الذى أخذه هدية من هكتور يوم نازله .

— ٣٨ —

استعصى بعد ذلك فتح طراودة ، وثبتت للعدو سنوات عدة ،

كان فرهاس بن آخيل من «ديدامیا» إبنة ليكومود ملك سيكروس، قد شب خلالها ، وملأ فراغ أبيه فى الجيش المغير الذى صبر على حصار طروادة هذا الزمن الطويل ، كما كان باريس قد صادف حتفه .

وبينما كان أودسيوس يتجول — ذات يوم — بجانب أسوار المدينة المحاصرة بعيداً عن معسكره ، صادف شخصا عند جبل «إدا» ، فطارده حتى تمكن من القبض عليه ، وعلم منه إنه الأمير هليناس بن بريام عراف طراودة ، فأخذ يستدرجه فى الحديث حتى علم منه أن مدينة أبيه لا تفتح إلا إذا استبعد تمثال الإلاهة «منيرفا» من معبدها ، وأخرج خارج المدينة . فوعى أودسيوس ذلك ، وأخذ يديم فكره فيه ، حتى إذا كان ذات مساء ، تنكر فى ثياب متسول ، ومضى برفقة ديوميد إلى أسوار طروادة . وهناك اختفى ديوميد فى مكان بعيد عن الأنظار . وذهب أودسيوس إلى أبواب المدينة ، فلما شاهده حراسها لم يلقوا إليه بالا ، وتركوه يمضى إلى داخلها .

وهناك أخذ يستجدى الناس إمعانا فى التنكر وتضليل الأنظار عنه . وأخذ يتجول فى شوارع المدينة ، التى كان يعرفها منذ وفد إليها أول مرة سفيراً بشأن استرجاع هيلين . فلما بلغ باب معبدها حيث يوجد تمثال منيرفا ، أخذ ينعم النظر فى جدرانه . وفيما هو يهم

بدخوله ، إذا هيلين منطلقة منه بعد الصلاة للإلاهة ، فعرفت فى الشحاذ أودسيوس ، وأدركت خروجة مركزه وما يكتنفه من مخاطر ، فأشارت إليه بأن يتبعها إلى بيتها . وحين بلغاه وولجاه ، أوصدت هيلين الباب بإحكام ، ثم قالت :

ـ ما أشد جرأتك يا أودسيوس . إنك هنا فى خطر ، ولكن لابد وراءك من خطة مرسومة تسير وفقها . هل الجيش آت لفتح طروادة ؟ . ثم ماذا عن منلياس ، أيضمر لى شرا ، أم تراه غافرا لى زلتى ؟ . . إن كانت الاولى آثرت الموت قبل أن يطأ أرض طروادة .

فقال أودسيوس :

ـ أولى لك أن تكونى حيث يميل بك الأمل . ولكن تسألينى عن فتح طراودة فأجيبك بأن فتحها متعذر ما دام تمثال ، منيرفا ، بمعبدها . ولهذا جئت . جئت لاستخراج هذا التمثال من المعبد ، وحمله إلى خارج المدينة . وقد تركت ديوميد فى مأمن خارج الأسوار ، فإذا مددت الينا يدا ، وعاونتنى على إدخاله ، أمكن أن نتغلب معاً على حراس المعبد .

فقالت هيلين :

ـ أنى يونانية أولا وأخيرا . ويسرنى أن أكون ذا فائدة

لكما ، وإن كنت لا أعلم ماسيكون مصيرى يوم تقع المدينة فى أيديكم ، ويدخلها منلياس ظافرا . آه . . ليتنى مت قبل أن أغادر إسبرطه ، وأستجيب لغواية باريس . . ولكن هلم . . إن الظلام قد إدلهم ، وسيكون معوانا لك ولديوميد فيما أنتما بسبيله .

* * *

ثم انطلقت هيلين ، ومعها أودسيوس إلى الشوارع ، ومنها إلى باب خلفى فى الأسوار ، فأدخلت منه « ديوميد » إلى المدينة ، واقتادته وأودسيوس إلى المعبد ، ثم عادت إلى بيتها .

وتمكن البطلان من اقتحام المعبد ، وسرقة التمثال بعد قتل حارسه ، وتسللا إلى خارج المدينة من بابها الخلفى الذى دلتهما عليه هيلين .

وعند ما أصبح التمثال فى حوزة الإغريق ، تيقنوا أن المدينة لا تلبث أن تكون مدينتهم . ولكن الكاهن كلكاس تنبأ بأن القوة لن تكون وسيلتهم إلى ذلك ، وأن الحيلة أجدى عليهم فى هذا الشأن . ففكر أودسيوس حتى هداه الفكر إلى حيلة بارعة ، وعرض فكرته على الزعماء قائلا :

ـ نبتنى جوادا ضخما من الخشب ، ونعده لاستقبال عدد كبير من رجالنا الأفذاذ ، ثم نحرق خيامنا ، ونقلع بسفننا إلى جزيرة

تينيدوس ، ونترك إلى جوار الجواد رجلا غير معروف من الطروادين ، بعد أن نكبل يديه بالقيود . فإذا أقلعنا بالسفن ، جاءه الطروادون متسائلين عن أمر الجواد وعن أمره . . فينهى إليهم أننا قد صنعنا الجواد ترضية لمنيرفا التى غضبت لسرقة تمثالها ، وأننا غاضبون عليه ، فأردنا التضحية به ليعود الأسطول سالما إلى الأوطان ، مثلما ضحينا بأفيجينيا عند أوليس فى مبتدأ الحرب ، فأمكنه مغافلتنا والفرار منا ، فإذا كان بارعا فى قصته ، صدقه أهل طروادة ، واستأمنوه وأدخلوا الجواد إلى مدينتهم ، ومتى أنس غفلة منهم فى الليل — وهذا ما سيكون قطعا — فتح لرجالنا ، فيقتلوا حراس الأسوار ، ويشعلوا نارا بأعلى برج فيها إيذانا للأسطول بالاقتراب ومداهمة المدينة .

فقال الزعماء :

— نعم الرأى رأيك ؟

ثم أمر أجمنون بجمع الأخشاب من غابات « إدا » ، وكلف مثالا ماهرا يدعى « إيبوس » بصنع الجواد فجاءته منيرفا فى الحلم ، وأرشدته إلى كيفية صنعه ، وقدمت له نموذجا للاسترشاد به ، وجد الجميع فى مساعدته حتى أنجز عمله . . فإذا للهيلانيين بعد فترة وجيزة من الوقت جواد ، من رآه حسبه صورة حية ، لا تمثالا مصنوعا .

وعندئذ قام أودسيوس خطيبا وقال :

ـ لم يعد أمامنا إلا أن نستولى على طروادة أو نموت . هلم فلنتم ما بدأنا :

فما سمع الهيلانيون قوله ، حتى انتخبوا من بينهم أشدهم بأسا وأكثرهم خبرة كأودسيوس نفسه ، ومنلياس ، وأياس الأصغر ، وفرهاس بن أخيل ، وفلكتوتيس ، وغيرهم . . فوضعوا سلما صعدو عليه إلى بطن الجواد ، وأحكموا إغلاقه من الداخل .

ثم أحرقت الخيام ، وترك «سينون» متطوعا إلى جانب الجواد. وأقلعت السفن .

— ٣٩ —

عندما تطلع أهل طروادة من كوى أبراجهم ، فرأوا أسطول العدو مقلعا ، ظنوا أنه أنصرف عنهم ، وأن خطره زال إلى الأبد ، فانطلقوا إلى خارج الأسوار ليشاهدوا هذا التمثال الضخم الذى تركوه وراءهم ، فعثروا «بسينون» الذى قص عليهم القصة الموضوعة ببراعة وحذق ، فصدقوها ، ورغبوا فى الاستعاضة عن «البلاديوم» تمثال الإلهة المفقود بهذا التمثال الرائع . فأخذوا يعملون على إدخاله إلى المدينة ، ولكنه كان من الارتفاع بما عذر عليهم ذلك . فهدموا قبوة أحد الأبواب ، وأدخلوه ثم ذهبوا به إلى معبد « منيرفا » ،

ونصبوه فى ساحته ، واعتبر الطرواديون هذا اليوم عيدا قومياً .

وأخذت المدينة تتأهب للاحتفال به ، فأقيمت الزينات ، ورفعت الرايات ووضعت جانبا أسلحة الحرب وعدتها .

ولما كان الليل ، اكتظت الشوارع بالراقصين والراقصات ، وتعالت دقات الموسيقى ، وأمعنت المدينة فى أخذ حظها من السرور ، وأسرفت فى الشراب ، وأكثرت من اللهو ، وأشركوا معهم «سينون» محتفلين به مرحبين ، إلى أن انقضى الليل إلا أقله . إذ ذاك هدأت المدينة ، وخيم عليها السكون ، ، واحتواها النوم فى أحضانه .

ولكن فردا واحدا كان يقظا ساهرا مترقبا الفرصة السانحة ، فأذا هى تلوح له فى مقترب الفجر . فلم يتمهل ، وذهب فى الحال إلى أعلى برج فى المدينة ، فأشعل النار ، وقصد بعد ذلك إلى تمثال الجواد فنادى أودسيوس وزملاءه بالنداء المتفق عليه ، ففتح أودسيوس كوة وأطل منها ، فلما استيقن من خلو المكان من الناس إلا من المنادى ، أخرج سلما من بطن الجواد ، ودلاه إلى الأرض وهبط عليه ، وتبعه زملاؤه . وفى الحال شهروا سلاحهم ، وتفرقوا فى أنحاء المدينة لاعمال القتل وإشعال الحرائق . ولم يلبث رجال الأسطول أن انضموا إليهم .

وشعر إنياس البطل الطروادى بالعدو الجاثم على صدر المدينة ،

فقام يدافع عنها دفاع المستيأس، على رأس كتيبة من جنوده، ولكنه غلب على أمره، وفر رجاله، فلم يسعه إلا الهرب، فحمل أباه أنشيز على عاتقه، وأخذ ولده «إسكانيوس» بين ذراعيه، وخرج من أبواب المدينة على مشهد من رجال العدو الذين عشت أمه أفرديت أبصارهم، وأعجزتهم عن رؤيته. ثم أبحر فيما بعد إلى الغرب حيث أنشأ مدينة رومة. وفى هذه الأثناء كان أودسيوس ومنلياس آخذين طريقهما إلى بيت هيلين، حيث كانت تقطن مع «ديفوب» بن بريام منذ مات أخوه باريس. فمرا فى سبيلهما على بيت أنتينور، وكانا لا يزالان يذكران حسن استقباله لهما عندما وفدا إلى المدينة سفيرين بادىء ذى بدء، فوضعا عليه علامة لتحذير أعوانهم من التعرض لصاحبه بسوء. وحين دخلا بيت «ديفوب» - وكان إذذاك نائما - شعر بهما فقام يدافع عن نفسه ببطولة إلا أن منلياس عاجله بضربة قاضية على مشهد من هيلين. وكانت هيلين فى حالة فزع ورعب. فلما تقدم منلياس شاهرا حسامه فى وجهها ليقضى عليها، صاحت صيحة هزته، وحركت فى نفسه عوامل الإشفاق. فتريث فى قتلها، ولكنه حين نظر إليها، واستتبع النظرة النظرة، ذكر ماضيه معها وحن إلى هذا الماضى. ومالبث روعة ملاحتها أن أشعرته بعجزه عن قتلها، وأنسته مساوئها،

فألقى حسامه على الأرض ، وأخذها من يدها برفق ثم مضى فى سكون .

° ° °

حدث ذلك ، بينما كان فرهاس بن آخيل فى مكان آخر يقتاد أندروماك إلى سفائنه ، بعد أن قتل بريام ملك طروادة .

محمد حسنى عبد الله

مدرس بالأورمان الثانوية الفنية

انتهت

(صورة الغلاف) تمثال برنزى لمركير بحذائيه المجنحين وعصاته السحرية وهو من التحف التى يعتز بها متحف فلورنسا

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مكتبة العرب
مديرها : صلاح الدين البستانى
٢٨ ش كامل صدقى (الفجالة) القاهرة

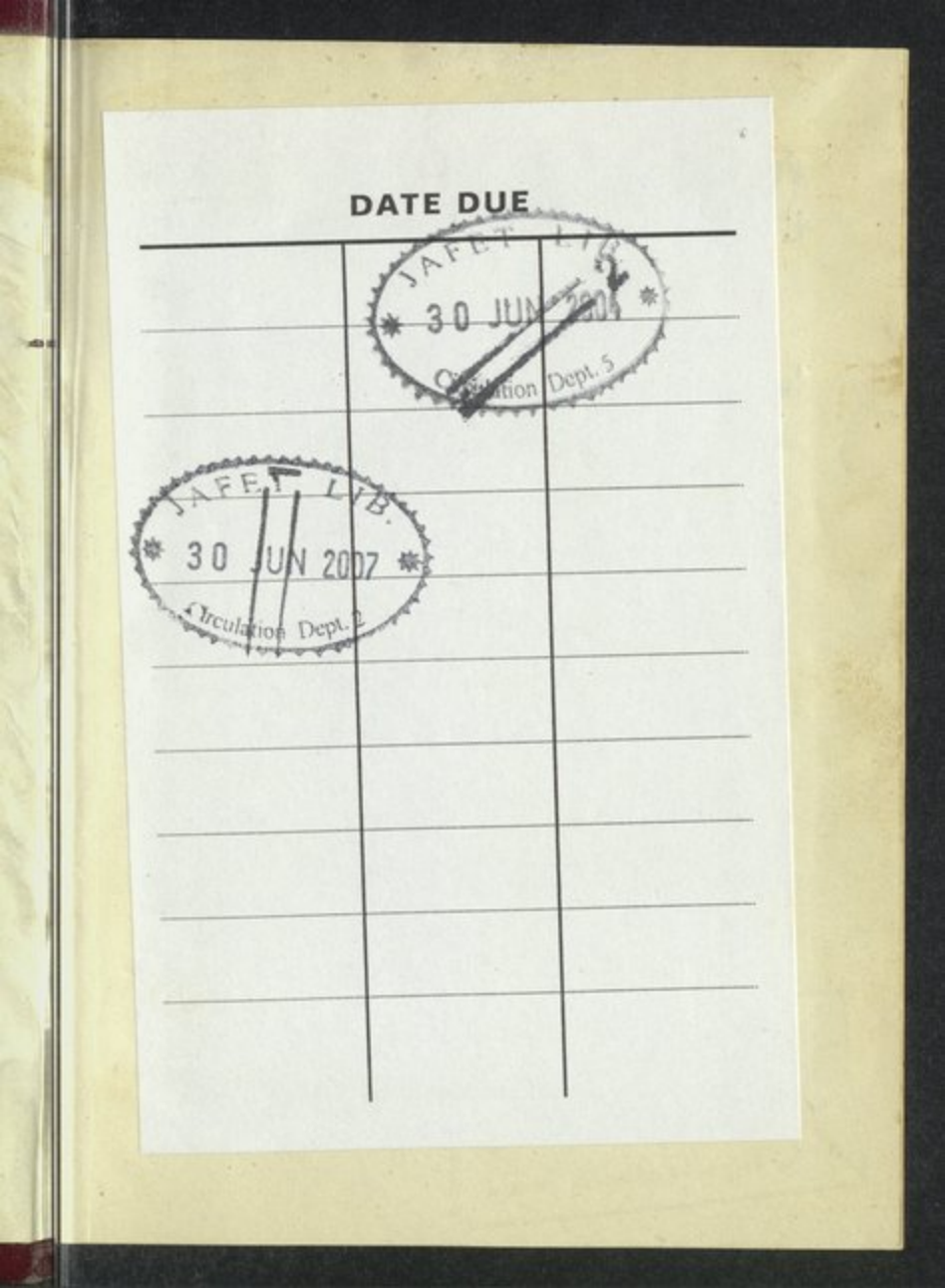
DATE DUE
JAFFET LIB.
30 JUN 2007
Circulation Dept. 5
JAFFET LIB.
30 JUN 2007
Circulation Dept. 2

883.1:A13mA:c.1
عبد الله، محمد حسنى
معارك بين الالهة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031481

Al... Beirut

883.1
A13mA

General Library